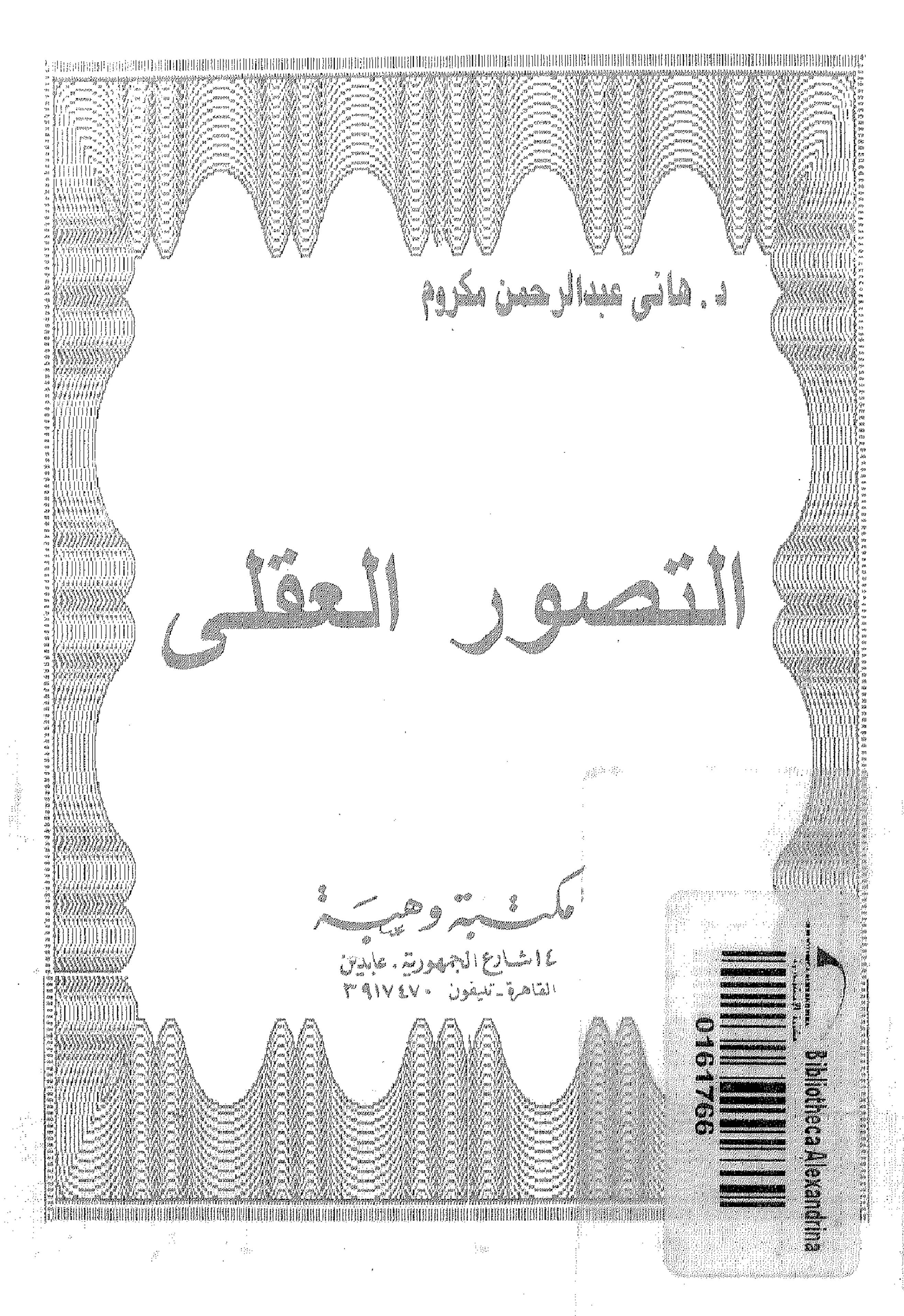


د . هانى عبدالرحمن مكروم

التصور العقلى

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

د. هانى عبدالرحمن مكروم

التصور العقلى

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذى جعل العاقبة للمتقين وجعل الخزى والخسران للفسقة والظالمين، وأنعم على المتعقلين من عباده بنعمة الإيمان؛ الذى يحمى العقل من الشطط والطغيان. والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ورحمة الله للعالمين، أذن الخير التى استقبلت ختام رسالات السماء إلى الإنس والجن، ولسان الصدق الذى بلغ عن الحق مراده من الخلق، سيدنا محمد بن عبد الله، الذى أرسله ربنا ﴿شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾.

وبعد فهذا هو الكتاب الثانى – للمؤلف – فى مجال العقل. وقد ذكرنا فى مقدمة الكتاب الأول، (العقل: تنظيمه وإدارته[8])، أن هناك حاجة ماسة لتأسيس علوم العقل لتوازى وتوازن العلوم والمعارف المادية وتتكامل معها، بل وتقودها؛ من أجل ترشيد العمل البشرى، وحفاظا على سلامة النفس الإنسانية، وتوجيه النشاطات البشرية نحو الفلاح الحق. والغرض من الدعوة لتأسيس علوم العقل هو ترقية العقل البشرى ورعايته، وهذا المجال مازال – حتى الآن – بكرا وعطاؤه عظيم الجدوى.

فى هذا الكتاب نميل نحو استخدام الأسلوب – الهندسى التحليلى فى متابعة دراسة التصور العقلى – الذى أحسبه مغايرا للأسلوب التجريبى المتبع فى العديد من الدرسات التقليدية السابقة، وما ذلك

إلا محاولة تهدف إلى بلورة أسلوب صحيح لضبط التفكير ولتصور ماهية الإنسان ودوره فى هذه الحياة الدنيا، ولإدراك كنه وفلسفة الحياة التى نعيشها، مع النظر إلى مصير الإنسان بعد المغادرة المؤكدة لهذه الدنيا، والقدوم الحتمى على الحياة الآخرة، فى دار الخلود الأبدى.

وكما ذكرنا فى الكتاب الأول فلا يدعى المؤلف سلامة رؤيته ، أو تميز فكره ؛ وإلا فيكون قد بدأ بالخطأ ، ولكن خلاصة الأمر أنها دعوة لمراجعة النفس ، وإيقاظ العقل وحسن ترتيب وتنظيم النشاط الفكرى وتقويم منهجه وآلياته. وذلك عن طريق التقليب فى محتويات العقل لفرزها وحسن ترتيبها؛ على أمل تمييز الخبيث من الطيب، وأن نتمكن من ترويق الذهن وتنقيته من الغثاء، وضبط تصوراته؛ ليصفو ويُضاء بنور اليقين. ولا ندعو لترتيب معين أو تنظيم بذاته ، بل هى دعوة لتنشيط الذهن وتنظيف الفكر وتحريره من أسر عقاله المادى الثقيل، ورفع الذل – الخفى – عن النفس البشرية تمهيدا للتحليق فى رحاب الإحسان بنفوس مطمئنة وخطى واثقة إلى سبل السلام. هذا هو القصد والغاية، وإن أخطأت فبسبب تخليطى وتبعاته فى رقبتى ، وإن بدا منى إحسان فإنما هو من فضل واهب النعم، هو الله رب العالمين الذى له كل معانى السمو والعزة والحكمة والجلال والكمال تقدست أسماؤه وتباركت آلاؤه، سبحانه وتعالى فى عليائه.

يتكون الكتاب من ثلاثة فصول رئيسية، بعد هذه المقدمة. وبما أن العقل هو وسيلة التصور الأساسية فقد تم تخصيص الفصل الأول لموضوع العقل ودوره فى التصور، والفصل الثانى للنظم الحاكمة فى الوجود وموقع العقل منها، باعتباره وسيلة تحكم. أماالفصل الثالث فيتناول منظومة التصور وعلاقتها بالعقل، ومايترتب على التصورات العقلية.

د.هانى عبد الرحمن مكروم

نعمة العقل

إن نعم ربنا - سبحانه وتعالى - على كل الوجود لا تحصى، وذلك مثبت بنص القرآن الكريم. ومن يتقصى حقيقة النعمة التى تبدو واحدة، يجد أنها تتشعب إلى ما شاء الله لتتلاقى مع جذور الوجود لدى الخلاق العليم. ولا يتسع المجال هنا لاستعراض بعض هذه النعم، ولكن نركز على نعمة العقل؛ لأنه يأتى فى مقدمة النعم التى أنعم الله بها على الإنسان فميزه على سائر المخلوقات وسخرها له، ولأنه بدون العقل يتعذر فهم النعم، أو تولد وازع الشكر أو الاهتداء إلى خير.

لقد كرم الله الإنسان بنعمة العقل ، فالعقل هو القطاع الخفى والجوهرى (اللامادى) فى النفس البشرية، وهو أبرز معيار للجودة الإنسانية؛ فبتقدمه تتزكى النفس وبتأخره ينحط الإنسان فيرتد إلى أسفل سافلين.

وبالتفكر فى الطبيعة البشرية، ومع الوضوح النسبى للبناء الجسدى (الشق المادى) للإنسان - منذ فجر التاريخ - نجد أن الشق المعنوى للنفس البشرية (العقل) يعلو كثيرا على المادة لدى العقلاء، وهو الذى يحدد فهم الإنسان ويسيره، ومازال وسيظل.

وبمجرد ذكر كلمة العقل يقفز إلى الذهن العديد من المعانى السامية، وينادى على الاتزان وتستدعى الحكمة، ويتجدد الأمل فى الوصول إلى حلول للمشاكل التى تواجهنا والعقبات التى تعترض الطريق. ولكن للأسف فكل فرد يعتبر أن العقل - عين

العقل – يكون فيما يراه هو، حتى ولو كان محركه هو الهوى!
ومن هنا يكمن الخطر وينشأ الخلاف.
التركيب الوراثى للمخ البشرى يقدره ربنا وفق مشيئته وحكمته – سبحانه وتعالى. وعموما فقد تبين حديثا أن التباين فى التركيب الجينى (المادى) بين البشر لايتجاوز ٠,٥ ٪، ولكن التباين بين العقول شديد.
ولابأس من أن نعتبر أن المخ هو المقر المركزى للعقل فى هذه الحياة الدنيا. وهذا الموروث لامجال فيه للكسب، وغاية مافى الأمر هو إمكانية صيانته والحفاظ عليه باعتبارة أمانة.
أما العقل – صاحب هذا المخ – فهو فى المقام الأول (كسبى) كنتاج للبيئات الثقافية التى نشأ فيها وعاشها العقل، ولذلك فأثر البيئة الثقافية على العقل يتفوق كثيرا على أثر البنية الطبيعية (الفيزيائية)؛ فالبنية الطبيعية تؤثر أساسا فى الجسد بما فيه المخ لكن البيئة (أو البنية) الثقافية تؤثر فى العقل. والعقل يعود ويلعب الدور الأكبر فى تشكيل وتطوير البيئة الطبيعية، فالحلقات متصلة والتغذية مستمرة والتأثيرات تراكمية.
وكما هو معلوم، فلفظ العقل لم يرد بصيغته الإسمية فى كتاب العليم الخبير – جل وعلا – ولكن ورد كعملية (Process) أو مجموعة عمليات تدعمها ملكة ذهنية، مثل :

عقلوه ، نعقل، يعقلها، يعقلون، تعقلون.

وقد وردت هذه الصيغ فيما يقارب الخمسين موضعا فى القرآن الكريم.

ولا يوجد كتاب – لاقديم ولا حيث – يمكن أن يضارع القرآن الكريم فى تبيان خطورة التصورات وفى ضبط العمليات العقلية وتصويب الفكر البشرى. لذلك فالقرآن العظيم هو مرشدنا ومرجعنا الأول – فى موضوع هذا الكتاب – ويليه كلام خير

الأنام (عليه الصلاة والسلام)؛ فهو المتلقى عن العليم الخبير وهو الصادق المعصوم..

وقد تبين من خلال العلوم الطبية، وكما أوضحنا فى كتاب العقل[8] أن هذه العمليات تتم فى شبكات المخ وما يتصل بها. ولذلك فبدون مخ سليم يتعذر وجود العقل أو النشاط العقلى.

والوظائف التى يمكن أن يؤديها العقل البشرى عديدة، ويأتى فى مقدمتها التفكر والتدبر والبحث عن الحقيقة بتلمس مصادر إشعاعاتها ومكامنها وكنهها وآثارها. وهذه العمليات تصورية وغير مادية؛ لأن تعاملها محصور فى المعلومات التى تدور فى شبكات المخ.

ولأن الحقيقة شديدة العمق فإن، إنتاج العقل البشرى حولها لا نعرف له حدودا. وتشير الدلائل على أن النسبة المستخدمة من قدرة العقل البشرى نسبة ضئيلة، مما يدل على أنه طاقة شبه معطلة لدى غالبية البشر، ومثل هذا المعنى يستنتج من شدة تباين التصرفات والسلوكيات البشرية، وأيضا مما يستفاد من بعض الآيات القرآنية، فأكثر الناس ﴿لا يعقلون﴾ كما ينبغى، لا بسبب العجز ولكن فى أغلب الحالات بسبب الغفلة أو الإعراض وبالتالى شدة التقصير فى حق النفس.

وقضية العقل قد شغلت علماء المسلمين أيام نهضتهم، فتكلم فيه كبار العلماء والفلاسفة، كالإمام الغزالى، وابن القيم، وابن رشد، وابن سينا، وابن الجوزى، والحارث المحاسبى وغيرهم[6].

هذا ويلاحظ بوضوح أن صوت العقل قد خفت بشدة بين المسلمين فى عصور تخلفهم وندر عطاؤهم العلمى والفلسفى، مما يؤكد العلاقة الوثيقة بين العقل والنهضة الحضارية، فانتبهوا ياأولى الألباب.

الطبيعة البشرية

من أصعب الصعب أن نتكلم عن أنفسنا التى لم نشهد خلقها، لكن الخلاق العليم أخبرنا أنه - جل وعلا - سيرينا آياته فى الآفاق وفى أنفسنا ، ولذلك فإننا نحاول التفكر فى حقيقة أنفسنا، والعون والهداية من الله.

معلوم أنه بسبب المقدرة العقلية يعتبر الإنسان من أرقى المخلوقات التى خلقها العليم الحكيم - جل شأنه وتقدست أسماؤه. وقد خلق الإنسان أساسا لعبادة خالقه وللخلافة فى الأرض وإعمارها، وليبتلى؛ ليهلك من هلك عن بينة ويحى من حى عن بينة. وقد فصلنا ذلك فى كتاب العقل[8]، ولا داعى للتكرار هنا.

وكما هو معلوم فالتركيب المادى للإنسان أصله الطين، لكن النفخ المقدس فيه قد أكسبه الحياة المتميزة، وهذا هو السر العظيم. وبعد ذلك جاء التعليم ليرقى بعقل هذا المخلوق فوق ما نعرف من المخلوقات المسخرة؛ من أجل تمكينه من أداء دوره المحدد جدا، فى هذه الدنيا.

وبدون العلم الصحيح فلا عقل يعتد به أو يوثق فيه؛ لأن العقل - كنشاط منظومة ديناميكية - يمكن أن يتعامل مع المعلومات المتعلقة بالحقائق ويمكن أن يغرق فى الأوهام. وفى كل حالات اليقظة يمكن أن تحدث العمليات العقلية، ولكن شتان بين عمل وعمل.

ومن الناحية العضوية (المادية)، فمن المعلوم أن ما يجعلنا نأخذ هيئة البشر لا هيئة الشمبانزى هو إختلاف قدره ١٪ بين طاقمنا الوراثى، والطاقم الوراثى للشمبانزى[2].

أى أنه من الناحية العضوية (المادية) فالإنسان شمبانزى بنسبة ٩٩٪، وهذه الحقيقة العلمية يختلط مدلولها لدى الدارونيين، وقد يعتبرونها تأييدا لما هم فيه من لبس.

لكن حين نتأمل الأمر من الناحية العقلية نجد الفارق الهائل بين الإنسان والشمبانزى، ولذلك فإذا أهمل الإنسان عقله أو ضيعه وغرق فى الغفلة عندئذ يتقلص الفارق بينه وبين الشمبانزى وغيره من الأنعام، بل قد يصبح الفارق لصالح الأنعام ولا عجب فى ذلك؛ لأن الأنعام مسخرة وغير مكلفة. وأعظم شاهد على ذلك هو قول ربنا، عز وجل: ﴿... **لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**﴾ الآية ١٧٩ سورة الأعراف. وبهذه الآية الكريمة نستدل على هبوط الفسقة والمجرمين والظالمين إلى ما دون مستوى الأنعام، وهم لا يشعرون بذلك.

وقد ثبت بالرصد العلمى أن كيان الإنسان ليس نتاج تركيبه العضوى أو الوراثى وحده، إنما هو أيضا نتاج التفاعل بين الموروثات (أو الجينات) مع البيئة. ومهما كان التركيب الوراثى للأفراد متطابقا، كما فى التوائم البشرية المتطابقة – التى تعتبر نسخا متماثلة وراثيا – إلا أن كل فرد سيختلف عن الآخر حسب تفاعله مع البيئة والمؤثرات ومع القدوة من الآباء والأقارب والمشاهير وغيرهم، وما يكتسب من معارف ومن المعايشات ووسائل التثقيف والتشكيل الفكرى المختلفة. ويتولد – عن كل ذلك – لكل فرد عقليته (المكتسبة) وبالتالى شخصيته وخبراته وخياراته الخاصة وهويته.

ونستنتج مما سبق أن جوهر الإنسان ليس هو البناء المادى الفانى، ولكنه العقل الذى يحدد مدى قدرة وعظمة الشخصية. وكل عظماء التاريخ لا نعرف عن بنية أجسامهم ولا صورهم إلا أقل القليل، لكن أبرز ما بقى منهم وما عرفناه عنهم هو نتاج نشاط عقولهم وانعكاساته على جوارحهم وماحولهم.

أهميـة العقل للبشر

مما سبق يتبين أن العقل هو جوهر الإنسان ومعبر هدايته. والعقل هو وسيلتنا الأساسية لتصور الوجود – بمكوناته – وفهـم غاياتـه. والعقل يؤدى أبلغ الأدوار فى سـعادة الإنسـان، وظـلام العقـل هـو السبب الرئيسى فى شقاوة البشر.

نحن نؤمن بأن الله – عز وجل – هـو خـالق الوجود والمسـيطر على كل شىء، والتحولات التـى تحـدث فـى الكـون لا تحـدث إلا بإذنـه – سبحانه وتعـالى – مهمـا صغـرت أو كـبرت، وفـى إذنـه بحدوثها حكم قد نعلم بعضها ولكننا نجهل أغلبهـا. وهـذا القـول لا يتعارض مع القول بأن التطورات التـى تحـدث فـى الحيـاة – مـن حولنا – تمر نسبة ملموسة منها من خلال عقولنا. ولذلك فـأحوال العقول تعد من أبرز المؤثرات فـى مسـار الحيـاة الدنيويـة؛ لذلـك خصصنا لها فى هذا الفصل.

فـالحروب – مثـلا – تنشـأ بقـرارات صـادرة عـن عقـول بشـرية، والتخمة تحدث بإرادة المسرف فى الإكثار من الطعام، والانتحـار يحـدث باختيـار المنتحـر ، وكـل مـن المحسـن والمسـئ يعمـل ويتصرف بإرادته واختياره، وعلم الله ورقابته فوق كل ذلك.

وقد يبتلى المخلوق ويتعرض لأقدار ومظالم لا ذنب له فيها – ولا قرار – ولا طاقة له فى مواجهتها، لكن يظل لـه خيـار أن يصـبر ويصـابر ويحتسب وأجره العظيم محفوظ عند الله، أو يكفر فيكـون الجحيم مثواه، والعياذ بالله.

والعاقل هو الذى يدرب عقله على الأخذ بالأسباب وتدبر سنن الله فـى الوجـود واحـترام النواميس؛ إجـلالا لخالقهـا أولا وقبـل كـل شىء، ثم لتوظيفهافى الخير بعد ذلك.

إن التفكير السـوى هـو الـذى يعصـم الإنسـان مـن مخـاطر الغفلـة وزلات الهـوى ومتابعـة الشـهوات والضـلالات، فبـالعقل تقـوى

الإرادة ويتيسر تحقيق الأهداف. ونظرا لأهمية العقل فقد عنيت الرسالات السماوية به غاية العناية.
مما سبق يتبين لنا بعضا من وظائف وأهمية العقل فى حياة الإنسان، وفيما يلى نواصل توضيح المزيد. فالعقل البشرى هو نقيض الجنون، وهو أعظم آية أنعم الله بها على الإنسان؛ لأن العقل هو وسيلة الفهم والتفكير ومعرفة الإله - سبحانه وتعالى قدره - وهو السبيل الذى يتوصل الإنسان به إلى تصديق رسل الحق ، وبالعقل يمكن تعرية الخرافات ودحر الأباطيل والأوهام، وبه يرجى فضل الله وحسن الخاتمة. فالعقل هو النافذة التى نطل منها على أنفسنا وعلى ما يتيسر لنا معرفته من العالمين.
بصلاح العقل تضىء المعلومات والحقائق فهم الإنسان، وتتحصن النفس ضد الشطط والمهالك الدنيوية والأخروية. ويقول ربنا - سبحانه وتعالى - لرسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم): ﴿ماأنت بنعمة ربك بمجنون﴾ الآية ٢ - سورة القلم. ولذلك فالإنسان مطالب بأن يصون هذه النعمة ويوظفها أفضل توظيف؛ لتزكية النفس على طريق الفلاح. فالعقل - كنظام معلوماتى تصورى - هو دليل الإنسان، وهو النور الذى يكشف الله - عز وجل - به الظلمات والغشاوات، وهو المرجع الحاضر الذى يرجع إليه العاقل فى الحكم على الأمور ، ولذلك فعندما يختل العقل تتردى فورا سلوكيات الإنسان وتشذ تصرفاته وتضطرب علاقاته بالآخرين ويعيش فى نكد وقلق، وتلتهمه الأمراض النفسية لتسلمه للأمراض العضوية، كما سنوضح فى الجزء التالى.

العقل والصحة

برغم ما توفر فى هذا العصر من علوم ومعارف كان يرجى من ورائها تحقيق سعادة الإنسان وراحته، إلا أنه لا يخفى على

الراصد مدى انتشار أمراض العصر والتوترات والضغوط النفسية والانفعالات والخوف والقلق والاكتئاب وما يترتب عليها من تزايد معدلات الانتحار. وما أشبه الصحة بالرزق، خصوصا من ناحية الشق الكسبى فى كل منهما.
وقد أصبح من المعلوم أن الأمراض النفسية والعصبية تعد أحد الأسباب الرئيسية وراء الخلل والارتباك الذى يصيب وظائف أعضاء الجسم الحيوية. وتجد السياسيين والكتاب والصحفيين والفنانين ورجال الأعمال والمحاسبين (وأيضا النساء نظرا لحساسية التكوين العاطفى) هم أكثر الفئات تعرضا لهذه الأمراض بسبب الخوف والقلق والشد العصبى والتوتر الدائم مما يزيد نسبة الهرمونات الضارة والغريبة فى الجسم، والمواد القابضة للشرايين فيرتفع الضغط فيها ويحدث التعجيل بتصلبها؛ ولذلك نجد هذه الفئات هى الأكثر إصابة بأمراض القلب.
ورغم المقدرة الذهنية لمعظم أفراد هذه الفئات إلا أنه يوجد خلل فى تصور الحياة لدى الكثيرين منهم. وفى مناخ التصور الخاطئ يتتابع التفاعل النكد وتتحرك الحياة – فى عقل صاحبها – من أزمة إلى أزمات حقيقية أو موهومة، وتضطرب الأعصاب فى شد وجذب وصراعات متلاحقة حتى تومض إشارات النهاية ويتعذر التصويب.
وأثناء المناقشات فكثيرا ماصارحنى العديد من المعارف بالأزمات المعنوية التى يعانون منها ولا يستطيعون التغلب عليها رغم اليسر الشديد فى أحوالهم المادية؛ لأن سبب المعاناة يتولد من الداخل، والأزمة هى أزمة تصور موهومة.
ولقد أصبح من الواضح للأطباء والنفسانيين وجود علاقة ما بين الاكتئاب والسمنة وظهور علامات الشيخوخة المبكرة. وأصبحنا كذلك نسمع تحذيرات مما يسمى بالأمراض "السيكوسوماتية"، أى الأمراض العضوية الناتجة عن أمراض نفسية، ومنها على سبيل المثال: بعض حالات الصداع النصفى، إلتهابات المفاصل، إرتفاع

ضغط الدم، قرحة المعدة والإثنى عشر، القولون العصبى، وغيرها.

وحين يعجز الطبيب عن تحديد السبب العضوى للمرض أو لشكاوى المريض يتجه للبحث عن الأسباب النفسية المحتملة.

والدليل الحق على صحة ذلك التصور هو قول ربنا - جل وعلا - فى وصف حال نبيه يعقوب عليه السلام : ﴿... وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ الآية ٨٤ - سورة يوسف عليه السلام.

ويرى المفكرون من الأطباء من أمثال Dr. Franz Ingelfinger ، رئيس تحرير المجلة الطبية البريطانية السابق، "أن نسبة ٨٥٪ من الأمراض التى نذهب للطبيب بسببها، يمكن للجسم أن يعالجها ذاتيا دون تدخل الطبيب".

فمثلا لولا نعمة الالتئام (العلاج) الذاتى للجروح والعظام ما نجا صبى ولا شاب، من المضاعفات المميته لانقرض الجنس البشرى، ولكننا لا ننتبه لهذه النعمة ولا نتدبر مدلولها.

ولا يوجد طبيب ينكر أنه رأى أو سمع - من ثقة - عن حالات شفاء من مرض ما دون سبب علاجى (طبى) واضح، لكن مثل هذه الحالات يتركها الأطباء بسبب شدة غموضها وزحمة العمل وطبيعة الفكر المادى البحت الذى يسود عقول أغلب الأطباء.

وكما جاء فى مجلة "العربى" الكويتية (عدد فبراير ١٩٩٧)، يقول د. "نورمان كوزين" إنه فى بداية عقد الثمانينات من القرن العشرين، وقد استثارته هذه الظاهرة، فحاول أن يعرف كيف يمكن للجسم البشرى أن يعالج نفسه لتشفى سواء من جرح إصبع أو التهاب مفاصل أو اضطراب فى المعدة أو نزلة برد أوحتى من أمراض متوحشة كالسرطان، لكنه وجد نفسه فى طريق مسدود، على حد تعبيره.

والعكس أيضا يتعجب الأطباء من التدهور السريع لبعض الحالات المرضية التى تعتبر بسيطة من وجهة نظرهم، ولكن الوهم حين يطغى على عقلية المريض تتدهور الحالة بسرعة.

إذن هناك جهاز خاص للشفاء الذاتى لم تأت على ذكره المراجع الطبية المختلفة، وبهذا الخصوص لا يوجد إلا عناوين تندرج تحت مسمى أجهزة أخرى مثل "الجهاز المناعى" أو تحت اسم الخلايا التى تتحد لمقاومة مرض ما.

فى نفس العدد عرضت مجلة "العربى" تلخيصا لأحدث الكتب بهذا الخصوص، وهو كتاب "الشفاء الذاتى" The Healer Within لمؤلفيه ستيفن لوك و دوجلاس كوليجان، وفيه يتناولان – لأول مرة – أهمية وتناغم العقل والجسم لمقاومة الأمراض والتحديات الصحية الخطيرة التى تواجه الإنسان، خاصة التعاون بين الجهاز العصبى والجهاز المناعى فى نظام علاج ذاتى غير مرئى ويقضى على الأمراض. ومن خلال الكتاب المذكور يركز المؤلفان على انبثاق علم جديد فى الطب مازال فى بدايتة، يسمى PNI إختصارا لكلمات Psycho, Neuro, Immunology التى تعنى النفس والأعصاب وعلم المناعة.

والأطباء منذ زمن يشعرون بوجود عامل شفاء – غير الدواء – يتعذر قياسه معمليا حتى الآن، عامل له علاقة بعقل ومخ الإنسان وحالته النفسية، ويسبب نشاطا يقاوم المرض. ويقول أحد الأخصائيين فى الجهاز المناعى: "أعرف بالتأكيد أن هناك تأثيرا من المخ فى جهاز المناعة، لكنى لا أستطيع تفسير كيف يحدث ذلك" .

ويقول د. "سيرف" الحائز على جائزة نوبل وأستاذ علم الأمراض (الباثولوجى) فى جامعة هارفارد:"علم المناعة من أكثر العلوم تعقيدا، والأعقد منه هو دراسة كيفية عمل المخ . وإذا كانت هناك علاقة بين المخ وجهاز المناعة فهى بلا شك فى غاية التعقيد".

وهنا يجدر أن نوضح أن العقل بتصوراته الخاصة (وليس المخ) هو القطاع التصوري المعنوي الذي يعلو فوق المخ المادي، ولكننا قد نقلنا الفقرات السابقة كما صاغها من نسبت إليهم حرصا على أمانة ودقة النقل ليس إلا.

العقل هو الحاكم الأسمى لكل الجوارح، وعن طريقه تتولد الانفعالات وتنشأ الأفعال وردود الأفعال. والعقل بفهمه وتصوراته للأمور هو الذي يشكل الحالة المعنوية للنفس البشرية، فيشجع سائر الأعضاء أو يخذلها في مواجهة التحديات.

نعمة الإيمان

قضايا الإيمان والكفر هي من أخطر القضايا العقلية، والإيمان الحق هو سيد أنوار العقل، ومعيار كماله، وركيزة استقراره. وقد أشار الذكر الحكيم إلى "إقرار فاقدي الإيمان بأنهم لا يسمعون ولا يعقلون: ﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ – الآية ١٠ – سورة الملك. فالكافر أعمى ويقضي حياته في الظلام وهو لا يشعر، بعكس المؤمن: ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك بالحق كمن هو أعمى، إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ الآية ١٩ – سورة الرعد.

وفي غياب الإيمان لا يمكن تغذية أنوار العقل بالكيمياء أو بالفيزياء أو بالهندسة أو بأي فرع من فروع العلوم البشرية، إن صحت التسمية. ويوجد حالات عديدة لعباقرة (ذهنيا) في أمثال هذه العلوم وهم في الحقيقة من الضالين – كما وصفهم خالقهم – وفقدوا نور عقولهم (أو صوابهم) وخسروا فوق ذلك أنفسهم.

بالإيمان تهدأ النفس وتقر العين وتتناغم الجوارح مع النواميس الكونية؛ فالإيمان هو سياج الطمأنينة ومنبع الأمن والأمان والخير والفلاح. والإيمان نقيض الجهل والكفر، والعلماء الحقيقيون هم

أقوى الناس إيمانا، كما سبق أن أوضحنا فى كتاب "العقل:تنظيمه وإدارته" ، وفى ذلك نستشهد بقول الخالق العليم: ﴿... والراسخون في العلم يقولون آمنا به ....﴾ الآية ٧ - سورة آل عمران.

بالإيمان ينفتح العقل ويتأهل لتقبل الهداية الخالصة، فيضاء ويتسع ويترقى، وبدون الإيمان يتخبط العقل فى ظلمات الوحل والمادة؛ لأن الحقائق الكبرى والغيبيات الفاعلة لا يمكن الوصول إليها بالأساليب والجهود الذهنية المتعارف عليها فى مجال كشف المحسوسات؛ لأن هذه الحقائق فوق مستوى التجريب والقياس المادى. ولا بديل للتبليغ فيما يتعلق بالأمور والمعلومات التى يعجز العقل عن إدراكها بطاقته المحدودة، كأمور الوحى والملائكة والبعث والجنة والنار والحساب وما بعد الموت، وأحوال القبور، والحكمة من الخلق والابتلاء ... إلخ. ولا غنى للعقل الراشد عن هذه المعلومات، بعد التأكد من صدق ودقة توثيق مصدر التبليغ، فكم علق بالديانات من مدسوسات وضلالات تحتمى بقداسة الدين.

أما العلوم المتعلقة بالمحسوسات، فالعقل مطالب بأن يصول ويجول فيها بضوابط، ويتصرف وفق المستجدات والتطورات التى لا تتوقف، وذلك فى حدود المباح، وفق أصول وآداب العبودية لعظيم السماوات والأرض وما بينهما. وفى هذا المجال يقول المعصوم - صلى الله عليه وسلم: "*أنتم أعلم بأمور دنياكم*". ولذلك لم نسمع أن رسولا قد جاء ليعلم الناس أصول الصناعة أو البناء، أو ليستخرج المعادن من باطن الأرض أو من قيعان المحيطات، إنما يجيء الرسول لتحديد الضوابط وتنوير العقول التى تتولى التطوير وفق النواميس وعلى أرض الواقع وفى الظروف الحاضرة والمتغيرة.

أما ضوابط السلوك وعدالة المعاملات، والغيبيات والمخلوقات الخفية وأمور الآخرة فهى فوق طاقة العقل ويلزم - حتما - تلقى

أخبارها من مصادرها الصحيحة الموثقة، ذلك لمن كان له عقل وحرص على تأمين مصيره فى الحياة الأبدية.

الإيمان بالغيب

فى سياق التحليل الفنى يمكنن تعريف الإيمان بأنه تصديق أخبار هامة، يصعب تصورها أو تقصى حقيقتها بالوسائل المادية المتعارف عليها، وذلك إذا ما أتت هذه الأخبار عن طريق مصدر موثوق وتؤيده وتدعمه أدلة عقلية صحيحة وبراهين صادقة حتى ولو كانت غير مباشرة.

والإيمان بالحق يجعل مافى العقل من معلومات أوثق مما فى اليد من ماديات، وهذا يرفع درجة الثقة فى تصوراتنا. فما فى العقل هو الذى يحكم مافى اليد وليس العكس. ومافى اليد وماتدركه الحواس هو غاية فى الضآلة ومآله إلى فناء، لكن مايغيب عن الحواس لا حدود له، وما يتعلق منه بذات الله ومراده لا يفنى وهو حق اليقين.

وهنا نذكر ما رواه أبوهريرة (رضى الله عنه) عن خير البرية ومعلم البشرية – صلى الله عليه – فى الحديث المتفق عليه: "أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد، ألا كل شىء ما خلا الله باطل".

هذا ومعلوم أن ملايين الأحداث والوقائع المادية تتحرك حولنا وتؤثر فينا ولا ندرى عنها شيئا. فكيف يطلب إدراك وحصر ماهو غير مادى. وجدير بالذكر أن العلى القدير – جل وعلا – لا يعز عليه أن يمكن بعض خلقه من رؤية أشياء غيبية كالملائكة والجن، أو سماع أصوات لايمكن أن يسمعها عامة الناس، والأمثلة على ذلك عديدة.

وبنـاء علـى ماسبق يمكـن القـول بـأن الإيمـان بـالغيب هـو مقـوم أساسى لحسن تصور الحياة وللسلامة العقلية والفكرية.
أما الإيمان بالخرافات فهو مصيبة عقلية. والخرافـات والتخـاريف تنشأ فى العقول الخربة والمظلمة، ويستثمرها وينميها المضللـون. والخرافات لا أساس لهـا مـن الحقيقـة، ولايمكـن أن تدعمهـا أدلـة عقلية، ولذلك ترفضها العقول السليمة، ولارواج لها إلا فى أوساط الجهل والعقول الفارغة.

الحالات العقلية

بالعقل يعى الإنسان ما يعى، وتتكون تصوراته الخاصـة للأمـور، ويترجم بعضا من ذلك فى الخفاء (اللاوعى) إلى مشاعر ومواجيد تعمل كثيرا بلا منطق وبلا حسابات. وهـذه المشـاعر يختلـط فيهـا الحـق بالبـاطل والحقيقـة بـالوهم، وتـأخذ صـورا وأشـكالا عديـدة نسميها حالات. وهذه الحالات ديناميكية ولا حصر لها، منها علـى سـبيل المثـال لا الحصـر: الرضـا، القبـول، الرفـض، الغضـب، الاقتنـاع، الحـب، الفـرح، الجنـون، الهـدوء، الاكتئـاب، الهـوس، اليـأس، السـرور، الشـوق، الحمـاس، الفتـور، الملـل ... وحـالات شتى كلها تتشـكل فـى العقـل. ولكـل حالـة تداعياتهـا، وتجاوزهـا لحدود الاعتدال يسبب الخطأ الذى كثيرا ما يخفى على صاحبه.
وهذه الحالات الداخلية هى التى تشعر الإنسان بالسعادة أو الرضـا أو التعاسة والشقاء، وما يترتب على كل منهـا. وتلـك الحـالات تنتج عن تفاعل معلومات وإشارات وتغيرات مادية ومعنويـة يمـر بها الإنسان، ولذلك ففهم هذه الحالات وأسبابها – إن أمكن – يعـد فى غاية الأهميـة بالنسبة للإنسـان. فهـذه الحـالات منهـا الصحـى والصـادق، ومنهـا المرضـى والكـاذب، والحالـة تؤثـر فـى سـلوك صاحبهـا وعلـى صحتـه العامـة، لا محالـة. ودور العقـل أن يكبـح الإندفاعات ويحذر تداعيات بعض هذه الحالات ويرشّدها؛ ليحمـى

النفس من مخاطرها؛ لأن العقل المستنير الواعى هو الذى يمكنه التعامل بالمنطق والحساب ويميز الغث من الثمين، وبالتالى يضبط التصرفات فى الحدود المأمونة.

نوعيات العقول

العقل عموما هو منظومة معلوماتية حية، والمعلومات (بأنواعها) هى أساس هداية الكائنات فى تأدية دورها فى الوجود. وعلى هذا الأساس فنوع ما من الهداية متاح لكل شىء، وبالتالى لكل الناس أيضا وأحيانا بدرجات متدنية أو مضطربة جدا ، كما فى حالات العته والتخلف العقلى والجنون والسفه... إلخ. وتتدرج العقول إلى أعلى مرورا بدرجات الذكاء وحضور البديهة وقوة الذاكرة ونشاط الذهن وسعة الأفق وحسن التصور ... حتى درجات الذين أنعم الله عليهم فسبقت لهم منه الحسنى، ومن عليهم بنور البصيرة والحكمة وهى منحة من نوعية الصفات الإلهية – ولله المثل الأعلى.

ومن هنا يمكن القول بأن شرط كمال العقل هو صحة العقيدة، فصحة العقيدة أجدى من كثرة العلم المختلط. والإيمان الحق هو ركيزة العقل السليم. فالإنسان يتعامل مع مافى عقله (بحالته) وليس دوما مع الواقع أو مع الحقائق؛ لأن العقل لا يستقبل الحقائق ذاتها وليس مهيأ لإستقبال حقيقتها، إنما يستقبل ويسع بعض المعلومات المتعلقة بها أو بأخبارها، لذلك فالسعادة (أو الشقاء) تتكون على أساس مافى العقل وليس على حقيقة مافى الواقع. وأحيانا يحاول الأقارب إخفاء الحقيقة عن أحد أفراد الأسرة خوفا عليه من الأحزان، وأيضا الأخبار الكاذبة – التى لا أساس لها – يمكن أن تسبب الوقيعة بين الناس.

وكل من المعلومة العقلية (والخبر) تحتمل الصحة والخطأ فى الدلالة على حقيقة الواقع، وسنفصل ذلك فيما بعد بإذن الله. ولذلك

فالعقول تتعامل فى أخلاط ومجاميع من المعلومات الصحيحة والخاطئة، وأنشطة العقول هى نواتج تفاعلات تلك الأخلاط مع الواقع الذى يختلف – بالتأكيد – عن ما فى العقول.
ولا تعارض حين نقول أن السفيه فعل كذا بعقله هو، والعبقرى تفتق ذهنه عن كذا، والمهتدى يدعو إلى كذا؛ فلكل عقله الذى رضيه، ولكن شتان بين عقل وعقل. والتباين الشديد بين نوعيات العقول هو السبب الرئيسى فى معظم الخلافات والمنازعات، وفى نفس الوقت فهذا التنوع الهائل يمكن توظيفه فى إبداع تنوعات الحياة، إن خلصت النوايا.

مصائب العقول

العقل البشرى باعتباره منظومة معلوماتية حيه تتمركز فى المخ، يمكن أن يترقى وأيضا يمكن أن يتردى من حيث مستويات الإدراك والأداء، وذلك لأكثر من سبب منها المادى والمعنوى ونذكر منها:

١- اختلال الأداء الإنزيمى للجسم.
٢. اضطرابات فى النظام العصبى.
٣. نقص شديد فى المعلومات الجوهرية اللازمة لحسن تصور الوجود.

السببان الأوليان عللهما عضوية ويجدى فيهما العلاج المادى (الطبى) إلى حد ما، ويعذر من يصاب بأيهما أو كليهما، ويرفع الله عنه القلم. أما السبب الثالث فأساسه الجهل ورفض الهداية، وبالتالى النقص الشديد فى المعلومات الجوهرية عن طبيعة الحياة وعلتها، وحين يحتد هذا السبب فقد يكون سببا فى بروز السببين الأولين وتتدهور الحالة بشدة.
والجهل هو المصيبة الكبرى التى تعوق التوافق المتناغم مع الأنشطة والنواميس الكونية؛ فالجاهل يكون تصوره للعديد من

الأمور مختلا أو ناقصا بشدة أو حتى معكوسا، وبالتالى تتابع تصرفاته ونشاطاته الخاطئة، فيتخبط ويتصادم مع معظم ما حوله، ويوزع الضرر فى محيطه حيث ذهب.
والجهل لاينحصر فى عصر بعينه ولكنه حالة عقلية يمكن أن تنتاب الإنسان فى أى زمان ومكان، وليس بالضرورة أن تكون نسبة الجهل فى نهاية القرن العشرين أقل منها فى نهاية القرن العاشر الميلادى، بل يمكن أن يكون العكس هو الصحيح برغم التقدم التكنولوجى.
وللأسف ففى هذا العصر المفتون بالزخارف يتعذر - على الكثيرين - قبول الطعن فى عقلية عبقرى الكيميائى إن كان ضالا، أوحتى فى عقلية لاعب الشطرنج أو محترف الرقص. فالأفذاذ (المحترفون) فى مجالات معينة أصبحوا فى نظر الناس وفى نظر أنفسهم هم أصحاب العقول العظمى وقادة التقدم والتنوير المزعوم، ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالو إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾، الآية ١١ و١٢ - سورة البقرة.
لقد تجسد الوهم وتعملق فى الأذهان الفارغة، وليل نهار ينفخ الأشرار فى حبال و"كابلات" نشر الهيافات والفقاقيع، وتسفيه العقول والشوشرة على الحقائق من أجل أغراض دنيوية حقيرة.

العقل والذكاء

يختلط الأمر على الناس حين يروا أن أصحاب القدرات الذهنية البارزة ، أو من يوصفون بالعبقرية فى مجال معين، وربما يكون بعضهم قد أوغل - فى نفس الوقت - فى الكفر والإلحاد والشرك والضلال والفساد أو الغرور، فيفتن الناس بهم ويحاولوا أن يقتفوا

أثرهم، ويقتنعوا بفكرهم الضال، وتلك مصيبة يجب الحذر من الوقوع فيها.
صحيح أن كلا من الهداية والذكاء من المنح الإلهية، لكن الهداية نعمة ربانية محضة تقود من يستحقها دوما لطريق الخير والفلاح، وتقى من الضلال، ويؤكد ذلك قول ربنا - سبحانه وتعالى - للبشر منذ فجر الخليقة: ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى﴾ الآية ١٢٣ - سورة طه.
أما الذكاء بمختلف أنواعه فهو نشاط ذهنى، يمكن أن يستخدم الحيل وسرعة الحساب فى الخير أو يوظفها فى الشر وبالتعامل المتعجل مع ظاهر الأشياء وقشور الحقائق، كما يمكن أن يوظفها فى الخير وطلب الحقائق الجوهرية.
وقد أثبتت الدراسات النفسية أن الكثير من الأشقياء والضالعين فى الفساد واللصوصية والإجرام كانت لديهم نسب ذكاء مرتفعة ونشاطات ذهنية ملموسة ولكنها موجهة فى الشر. ولذلك لا يشترط أن يكون الذكى عاقلا، بل يمكن أن يستخدم الذكاء فى المكر السيء الذى يهلك صاحبه فى النهاية. والأمثلة عديدة للعباقرة الذين قضوا سنوات من أعمارهم فى مستشفيات الأمراض العقلية، أو ثبت فشلهم فى التعامل السلس مع المجتمع، أو قرروا الانتحار وبئس القرار.

وعلى ذلك يمكن القول بأن الذكى ليس بالضرورة أن يكون صاحب عقل راجح، وأيضا العاقل ليس بالضرورة أن يكون بالغ الذكاء أوالدهاء، لكنه كيس فطن قد عرف الطريق القويم، وهذا من فضل الله -جل وعلا - وليس بسبب تقدم التكنولوجيا التى لا ننكر فوائدها الوقتية.

العقل الرافض

القبول أو الرفض من الحالات العقلية المتكررة، وهذه الحالات الطبيعية لا تتكر إلا حين تبنى على خطأ أو بدون مبرر جدير بالاعتبار، أو بسبب يكفى للتبرير المنطقى للرفض أو القبول. وفى العادة يتطور القبول إلى حب، وفى المقابل يتطور الرفض إلى كراهية، ولا يشترط فى ذلك وجود أسباب قوية أو منطقية، وكم من العقول التى تعمل بلا منطق.

وفى العقل السوى يبدو أن نسبة الأشياء المقبولة تزيد كثيرا على نسبة الأشياء المرفوضة، وبعبارة أخرى فالقبول المبدئى هو الأساس فى التعامل السوى وفى التفاعل الطبيعى مع الأشياء من حولنا، والرفض هو الاستثناء؛ فحسن الظن يجعل التوافق السلمى والاتساق مع المحيط هو الأساس، وفى ذلك إنصاف للآخر، واعتراف بحقه فى الاختلاف وحقوقه فى الوجود، ما لم يثبت عدم جدارته بكل الحقوق التى يدعيها.

الرفض المبدئى للآخر يعد من الآفات العقلية المستشرية فى كل زمان ومكان، وهذا الرفض يمكن إرجاعة إلى الإرث المعنوى الناتج عن النشأة والتربية، وهو حالة عقلية مرضية بالغة الخطورة. وأمثلة هذه الحالة تفوق الحصر، وأبرزها كيفية قبول رسالات الهدى التى لا يعرف العقل الرشيد أسمى ولا أنفع منها. لكن كل رسالات الهدى والنور قوبلت فى البداية بالرفض والرفض العنيف فى أغلب الحالات، وقوبلت بالصد وحملات التكذيب التى سجلها الذكر الحكيم فى عشرات المواضع، منها قولهم: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغو فيه﴾ ، ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾، وأيضا قولهم ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ ، وبرروا لأنفسهم الرفض ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها﴾، ﴿يقولون إنما يعلمه بشر﴾ ، تلك هى نماذج من الرفض الصارخ للحق المطلق. وما دام ختام رسالات

السماء يقابل من جانب العقول المريضة (المقفلة) بالصد الأعمى والرفض العجيب، فأى رفض بعد ذلك لا يستغرب.
والتعصب المقيت يمكن رصده بسهولة كمغذى ودعامة أساسية لعملية الرفض، فالمتعصب يتشبث بكل ما فى عقله ووجدانه – حقه وباطله – ويعتبره كله جزءا لا يتجزأ من كيانه، ينمو معه وهو لا يشعر، ولا يتصور أن تخلصه من الباطل وقبول الحق المعروض عليه فيه شفاء لذلك الكيان العليل.
والتعامل مع المتعصب بخصوص المسائل التى يتعصب لها – أو ضدها – يحتاج لأقصى درجات الحذر والحكمة وطول الصبر؛ لأن لمس هذه المسائل مباشرة يهيج المتعصب فيتصرف بلا عقل ويزداد شططا فتتردى الحالة إلى أسوأ مما كانت. ويجب أن يكون اللمس بالغ الخفة وغير مباشر حتى لا يشعر الرافض فينتفض ويتوجس متحفزا فتفشل المحاولة، لذلك يجب إيقاف المحاولة قبل ظهور فشلها وقبل هياج الرافض.
والرافض لديه الاستعداد للقتال إن كان شجاعا أو متهورا ، وإن افتقد الأولى فلن يعدم الثانية؛ بسبب حالته العقلية. وفى المقابل فالمحب لديه الاستعداد أيضا للتضحية – فى سبيل المحبوب – حتى بالحياة، بغض النظر عن جدارة المحبوب بالتضحية أم لا؛ فالعقل يكون عندئذ فى حالة غير عادية، وليس المنطق هو وسيلته الأساسية فى الحكم.

العقل الميت

فاقد الإيمان ميت العقل والقلب، حتى ولو كانت أجهزته الحيوية تعمل بأقصى كفاءة فيزيائية، هذه معلومة سماوية. فالعقل السليم (الحى) يتعامل بنور الهداية مع الطبيعيات ومع ما وراء الطبيعة؛ وهو وسيلة الربط والتمييز بينهما. أما التعامل مع الطبيعيات وحدها فيبدو أن تلك وظيفة المسخرات من الجمادات والأحياء

الدنيا، التى لافارق يذكر لديها بين الموت والحياة، أو بين الفكرة والسكرة، فهى من تراب وإلى تراب وغير مكلفة ومصيرها إلى فناء وتنتهى قصتها بنهاية وجودها فى هذه الدنيا. وحين يختل عقل الإنسان - ويصاب بالجنون - عندئذ يرفع عنه القلم ويصبح أقرب ما يكون من الأحياء الدنيا فهو كالميت أو أسوأ حالا من الميت.

الركيزة الأولى للحياة الإنسانية الحقة هى العقل القويم، فإن افتقد العقل الرشيد افتقدت الحياة الحقيقية وأصبح البشر فى حالة الموات أهون منها، وإن ظل هذا المخلوق ينمو (فيزيائيا) ويتكاثر كما يحدث فى المعاشرة بين المجانين والإباحيين، حيث تمارس أنشطة تنكرها الأنعام، لكن سفهاء البشر لا ينكرونها.

من الممكن أن يفقد الإنسان يده أو ذراعه أو ذراعيه وساقية لكنه يظل إنسانا وحيا وله قيمة معتبرة، ويشعر بالرضا والسعادة، ويفيد المجتمع الذى يحيا فيه. أما الضالون والسفهاء ومن رفضوا رسالات الهدى واختاروا الجهل وغرقوا فيه فهؤلاء قد تلاشت تأثيرات أرواحهم وبقيت أجسادهم والقبور أولى بهم ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - له حكمة فى الإذن باستمرار وجودهم إلى حين، ربما باعتبارهم من أسباب الابتلاء والاعتبار للآخرين.

وأول الأدلة على موات هؤلاء، قول ربنا - جل وعلا - ﴿... **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ...**﴾ الآية ٥٢ - سورة الشورى. ﴿.... **وماأنت بمسمع من فى القبور**﴾ الآية ٢٢ - سورة فاطر، أى لن تستطيع توصيل ما تريد إلى أسماع هؤلاء؛ لأنهم بلا عقول، أو عقولهم كعقول الموتى، وبدون العقل فلا جدوى للسمع ولا معنى له بالرغم من السلامة الفيزيائية للجهاز السمعى لديهم.

بدون مجادلات ولا مجاملات هذا حكم: ربنا فاقدى الإيمان عقولهم مظلمة، أو قل بلا عقول، أموات روحا، وقد يكونوا نشطاء جسديا. فهل من العقل أن نتبعهم؟!

العقل والحضارة

باستخلاف الله – عز وجل – للإنسان فى الأرض فإن الإنسان ممكن من تشكيل وصياغة نمط معيشتة فى هذه الحياة الدنيا. فتطور العقل والفكرهو الذى يقود تطور نظم المعيشة وأشكال الحياة على ظهر الأرض أو خارج نطاق الكرة الأرضية.

والمقارنة بين أنماط الحياة البدائية وحياة العصر تعكس مدى الاختلاف بين عقل الإنسان الأول وعقل الإنسان فى وقتنا الحاضر. وليس من السهل الجزم بأن أى الحياتين أفضل.

فالتطور التقنى الذى حققه الإنسان فى الوقت الحاضر قد هيأ العديد من صور وأشكال الرفاهية والمغالى فيها والترف الزائد، مما جعل الإنسان يتجاوز الحدود فى غروره واندفاعاته راكضا خلف بريق المادة ونداء الشهوات، وبذلك يتعذب وأحيانا يتلذذ بتعذيب نفسه.

وما التلوث، الذى نعانى من كل صوره ويهدد مختلف صور الحياة، إلا إفرازات نظم صنع وإنتاج الرفاهيات المدللة والترف الزائد الذى تنشده التصورات الهابطة. وقد أصبح من المتعذر قبول مجرد مناقشة الحد من هذه الرفاهيات المغالى فيها أو تحجيم الترف الباهظ التكاليف.

وحضارة الأمة ونمط معيشتها فى أى عصر تدل على نوعية العقول التى عاشت ذلك العصر. وقد نبهنا العليم الخبير – سبحانه وتعالى – فى أكثر من موضع من كتابه العزيز، إلى أن الحياة الدنيا هى فى حقيقتها ومجملها أشبه مايكون باللعب واللهو، ولكن أكثر الناس لم يعقلوا ذلك وبالغوا فى اللعب واللهو لدرجة أن

أصبح للعب واللهو صناعات شتى وميزانيات بالمليارات ووسائل جذب منتوعة لتحقيق الإغراق الكامل فى اللعب واللهو. وقد أصبح للعب قواعد وقوانين تناقش فى مؤتمرات عالمية، ثم تطبق ومن يخالفها يعاقب بصرامه وكأن الأمر جد وليس لعب! وصار للهو نظم وبرامج ضبط متواصلة تضمن التخدير الكامل للضحايا فيستسلمون وهم شبه منومون.

أما الأمور الجادة فقد سادتها الفوضى وأصبحت عرضة لعبث كل من هب ودب يصوب إليها سهامه ويدس فيها سمومه، وغالبية البشر فى غفلة أو غارقون فى اللهو واللعب. ووسط هذا الجو الفوضوى الهزلى اختلت المعايير واختلطت الأمور، فكيف يصح التصور!

إن مطالب الشهوات لا حدود لها، وإن تركت بلا ضوابط فإنها تقود الإنسان إلى الهلاك. ومن الصعب أن يتفق البشر على ضوابط محددة لشهواتهم المتنوعة والمتباينة الشدة والتنوع، ولذلك فقد انفرد بمهمة وضع الضوابط خالق الأنفس - جل وعز. ويجب أن تصاغ وتنظم الحضارة الراقية فى حدود تلك الضوابط الحكيمة وليس تبعا للشهوات وسعارها المجنون.

وفى صنع الحضارة الراقية يجب ألا تغيب الغاية ولا ينسى الإنسان الغرض الذى خلق من أجله، عندئذ ستسقط معظم الرفاهيات الزائدة والزخارف التافهة، وتتعرى الشهوات المنفلته ويتهذب "ريتم" الحياة فيتبين الجد من اللعب والخير من الشر والطيب من الخبيث والإصلاح من الإفساد، وتهدأ الأنفس وتطمئن القلوب فتستريح وتريح.

رعاية العقل

يستنير العقل ويستقيم التصور بالحصول على المعرفة الصحيحة؛ فالمعرفة الحقة هى خطوة للأمام على طريق ترقية العقل وتنمية

الفهم وبالتالى حسن التعامل مع الواقع والبيئة والمحيط. وفى المقابل فالجهل ظلمات يتخبط فيها العقل، أما المعلومات الكاذبة فهى سموم عقلية تقود إلى الضلال وتسبب الأمراض العقلية الظاهرة والخفية.

وأكثر معارف ومعلومات الناس تأتى من الموروثات، ومن وسائل التثقيف، وما أكثرها فى هذا الزمان. وليست كل معلومة تصل للعقل تعبر عن حقيقة؛ فليس كل ما فى الكتب صحيحا، ولا كل ما يذاع يعبر عن حقائق خالصة، ولا كل ما يشاهد يمثل الواقع تمثيلا أمينا. ولذلك فالعقول المستسلمة والغير واعية تكون ضحية لتردى بعض وسائل التثقيف.

والإطار الأمثل لضبط التصورات ولتوفير سبل السلامة العقلية يتمثل فى الخطوط العريضة التى حددتها رسالات الهدى والنور؛ فالمنابع الأساسية للمعرفة الراقية – مرتبة تصاعديا – هى:

١. العلم الصحيح من مصادره المختلفة، وأبرزها العلماء.
٢. هداية رسل رب العالمين وأنبياءه – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.
٣. الكتب السماوية التى تحمل النور المبين إلى العقول.

النظم الحاكمة فى الوجود

النظام يكون له غاية يوجه نحوها، ولا بد للنظام الجيد من منظم؛ لضبط الأداء. والوجود يأتى بفعل موجد يضمن استمرار وجوده كى لا يزول. وبعد طول تفكر وتدبر، فقد سلمنا بالقدرة المطلقة وعظيم السلطان لربنا - سبحانه وتعالى - ونجل ما قدره من سنن وما شاء من حكم وما أبدع من خلق. فهو جل وعلا الحاكم الأعلى لكل شئ، بلا جدال. ولايمكن أن يحدث أى شىء فى الوجود إلا بإذنه. والممكن هو مايأذن به الله، كإحياء الموتى على يد المسيح (عليه وعلى أمه الطاهرة أزكى السلام)، وكتكثير الطعام ونبع الماء فى يد خير الأنام عليه الصلاة والسلام.
أما المستحيل فهو مالا يأذن به الله حتى ولوكان أمرا عاديا ويسيرا كفتح الفم أو تحريك إصبع، حيث أن ذلك يتعذر فى حالة الشلل - مثلا.

ونحمد ربنا ونشكره على جليل نعمه التى تفوق الحصر، ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾. وفى مقدمة النعم نجد نعمة العقل، التى يجب أن تنال منا ما تستحق من رعاية وعناية.
ووسط ديناميكية الكون المزدحم بالمكونات والمعانى المتفاعلة، وفى خضم الحياة المتشابكة الأحداث والتأثيرات والدورات يلزم وجود نظم تحكم راقية لتنظيم التفاعلات وتنسيق الحركات والتحركات لتفادى التصادمات المدمرة.

وفي تعاملنا مع مفردات الوجود من حولنا فوسيلتنا الأساسية والمباشرة للضبط والتنظيم هي العقل؛ فالعقل هو الذي يعي ويدرك ويحسب ويراجع ويقرر ويسيطر على تصرفات الإنسان تجاه نفسه وفيما يخص غيره.

المادة والزمن

لقد ألفنا التعامل الآلي مع المادة – والمادة فقط – حتى أصبحت الغالبية العظمى من البشر تتصور كل شيء بطبيعته (صورته) المادية البحتة، وبهرنا سحر المادة – رغم أنها مسخرة – وأصبح للمادة سلطان شديد على النفوس، وهذا خلل خطير في التصور. وهنا يلزم مراجعة دقية لماهية المادة؛ لنقترب من الحقيقة بقدر مايتيسر.

فلفظ "مادة" عموما – في اللغة العربية – يقصد به كل شيء يكون مددا لغيره، واللغة ، باعتبار أن أغلبها منتج عقلي، لذلك فلا يشترط في أصل صياغة مفرداتها أن تكون مرتكزة على الحقيقة، لكنها في الغالب ترجع إلى تصورات من صاغ ألفاظها.

والمعنى الخاص للمادة هو : كل جسم ذي امتداد وكتلة وبالتالي يشغل حيزا. ومادة الشيء هي مجموعة العناصر التي يتكون منها. وعلى ذلك فمادة الكون يمكن أن نعتبرها: هي ما أوجده الله – عز وجل – من العدم وتجري عليها التحولات وفق النواميس التي قدرها العليم الحكيم. والمعنى الأخص (أو الفني): هو ما نستشعره بحواسنا أو بما يقوم مقام الحواس من أجهزة صناعية ومعدات وأدوات مساعدة ووسيطة، كالتلسكوب والميكروسكوب وأجهزة الأشعة وغيرها، أي العالم المشهود (الظاهر) أو المنظور الذي يفتتن به الكثير من الناس.

ولعله من أبرز ما يشير إليه الفكر البشرى (التصورى) الحديث هو ما يسمى بنظرية (الانفجار الكبير) التى تقول بأن الكون قد بدأ فى لحظة محددة إثر انفجار مادته التى كانت جميعها محتواه (أو محصورة) فى حيز متناهى فى الصغر - بالنسبة لحجم الكون الحالى - وهائل الكثافة مما سبب الانفجار، وكانت لحظة الانفجار هى بداية المكان والزمان وتحيز المادة. ورغم أن هذه العملية تفوق طاقة التصور، إلا أن العقل لا يرفض قصتها، فى سياق البحث عن ﴿كيف بدأ الخلق ؟﴾ .

وشدة تأثر العقل البشرى بطغيان المادة وعجزه عن تصور ما وراءها جعل الكثيرين يعبدون المادة؛ لأن آثارها هى المطبوعة فى العقول وهى التى تحكم نوعية التصورات وبالتالى التصرفات، وآثارها المادية مطبوعة فى الأجساد.

وقد بين العلم الحديث أن الكون من حولنا هو صور متعددة من صور الطاقة المؤقتة، وما المادة التى تشغلنا إلا طاقة متحيزة تتراقص أمام أعيننا فتشكل معظم التأثيرات والتصورات التى تأسرنا.

أما الزمن فهو الامتداد الخفى الذى تتشكل فيه الأشياء والأحداث، فتبرز فيه مشيرة إليه دون أن يظهر هو ببعض علاماته، فحين تختفى الأحداث والعلامات يهرب معنى الزمن وينعدم الإحساس به. وحين تخمد الأحداث أو تفتر، عندئذ نشعر بفتور معنى الزمن وبطء حركته، وأحيانا الملل منه. وقد بين لنا ربنا - جل وعلا - هذه المعلومة فى أكثر من موضع فى كتابه العزيز: ﴿وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾ الآية ٦٢ - سورة الفرقان. وقد ذكرذكر الوقت المعلوم والحين بمعناه الشديد التفاوت، والفترة وهى المدة الزمنية التى تفتر فيها الأحداث والوقائع. فمثلا لو افترضنا وجود شخص ما فى مكان مظلم تماما، فلولا النشاطات الحيوية الحادثة فى داخل جسمه ما شعر

بأن هناك زمن يمر، لكن ضربات قلبه وحركات أنفاسه تشعره بتجسيم الزمن فى تصوره.
وهذا المتغير الخفى اكتسب مسمياته من التغيرات التى نلاحظها، فهو قاسم مرن ومشترك فى جميع التحولات، ولذلك فهو فوق المادة والمكان، ولكل شىء زمنه ومقاييسه الخاصة به؛ لأن كل شىء فى الوجود يدخل فى مجموعات من الدورات الزمنية، و ﴿الله يبدؤ الخلق ثم يعيده، ثم إليه ترجعون﴾ الآية ١١ سورة الروم.

التوجيه والهداية

تفضل علينا ربنا فأخبرنا أنه - عز وجل - خلق، ثم هدى ﴿... الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾ الآية ٥٠ - سورة طه. وكما تنص الآية الكريمة، فهذا الأمر ينطبق على كل شىء فى الوجود؛ لأن الخلق المادى بدون هداية (معنوية) يعنى النقص الشديد والتخبط فى الظلمات - تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا. فالهداية (حسن التوجيه) ضرورة لا غنى عنها لنجاح النظام فى تأدية الدور أو الوظيفة التى وجد من أجلها، ولاستقامة الأمور المتعلقة بالنظام. وعدم توفر الهداية أو رفضها يعنى الضياع والهلاك.
والهداية الإلهية هى التى تتضمن أنقى نوعيات العلم وأصفى درجات النور، ولله المثل الأعلى. والتوجيه - كمصطلح فنى بحت - يعنى القيادة نحو الخير أو نحو الشر، وهو وظيفه يمارسها البشر بعقولهم، ﴿ولكل وجهة هو موليها، فاستبقوا الخيرات﴾ الآية ١٤٨ سورة البقرة. وفى هذه الآية الكريمة ينبهنا ربنا - جل وعلا - إلى وجوب التوجه السريع نحو الخيرات، الخيرات الحقة وليست المزعومة أو المدعاة.

اما الهداية فتكون دائما نحو الخير ولا يملك زمامها إلا العليم بكل شيء، ويقول لخاتم المرسلين – صلى الله عليه وسلم – ﴿إنك لن تهدى من أحببت﴾. وقد سبق وعجز كل من نوح وإبراهيم – عليهما السلام – عن هداية أقرب الناس إليهما. والرسل ما هم إلا مبلغون عن ربهم، أما الرسالة المبلغة هي من العليم الحكيم. ولذلك فما يصدر عن الخلائق سنسميه توجيها، أما ما يصدر عن رب العالمين فقد سماه العليم الخبير، هداية.

والهداية الفطرية المفروضة على مختلف الجمادات، والنباتات والعجماوات، يوجد لها نظائر اختيارية لترقية العقل وتزكية النفس البشرية. والعقل الفطرى يقبل – بفرح – هداية ربه إن لم يكن قد جرت عليه عمليات تشويه وتلبيس شيطانية. وسبحان الذى من علينا ودعانا لنسأله الهداية فى كل ركعة من ركعات الصلاة، فلا تصح الصلاة بدون ﴿اهدِنا الصراط المستقيم ...﴾.

وبعد بدء الهداية يأتى التفكير كوسيلة إبداع راقية. فالتفكير نشاط داخلى عقلى يشغل المعلومات المتاحة فيتولد منها أفكار جديدة غير محدودة، وذلك يساعد فى تطوير العقل ورفع كفاءته وتحسين إنتاجيته.

وفى عصر العلم، وتوفر أساليب التحليل، آن لنا، بل وجب علينا، أن نميز بين الخلق والتوجيه والهداية، ونعمق فهمنا لآيات الهدى التى هى ﴿أحسن الحديث﴾ ومصابيح البصيرة. وفى ضوء ما توافر من علوم فى عصرنا الحاضر، أصبح واضحا – على الأقل للمتخصصين – التمايز البين بين نظم التشغيل (البناء الأساسى للنظام) ونظم التوجيه والتحكم، والعلاقات المشتركة بينهما.

ومن السذاجة أو الغفلة تصور أن هناك عملا يحدث بذاته بدون مدبر ومنفذ، أو إبداع يبرز للوجود بدون مبدع، بل لا بد من

مدبر ومنفذ وتوفير أسباب ومقومات، قد تكون خافية أو غير مباشرة أو غير مرنية أومجهولة لكن الجهل بها لا ينفى حقيقة وجودها، بل إن السبب الخفى قد يكون أقوى وأشد تأثيرا من السبب الجلى. والعقل المستنير الذى يرفض الوهم والخرافة سيبحث عن المقومات الفعلية، والأسباب الفاعلة وإن كانت خفية.
وفيما يلى نحاول تلمس سبل التوجيه والهداية فى بعض الخلائق، وتقصى نظمها، وتصنيفها، بقدر ما يتيسر لتصورنا.
ولنظم الهداية مراتب (مستويات) متنوعة نتلمس منها ما يهدينا إليه ربنا بفضله ومنه وكرمه، ونتناول بعضا منها فى الجزء التالى. وهذه المستويات تبدو على الترتيب كالتالى:

- مستوى البرنامج.
- مستوى الفطرة.
- مستوى العقل.

مستوى البرنامج

البرنامج يمكن تعريفه على أنه وسيلة (أو منظومة) توجيه محدودة المدى، تشكل مسارات أو دورات أو عرى (Loops) مرسومة بدقة. ويتضمن البرنامج خطوات منظمة ومحفوظة لإحكام تنفيذ عمل ما. وهذه الخطوات تكتب بلغة (أو شفرة) متفق عليها بين المصمم والمنفذ، أو بين طرفين أو أكثر؛ لأن العمل بدون برنامج يعنى العبث والفوضى ونهايته الخسران. والبرنامج المنظم يولد عملا منظما والعكس صحيح، فالبرامج لا تبدع بذاتها بل لابد لها من مبدع. ويصمم البرنامج لتنفيذ أعمال تتكرر كثيرا، أو قابلة للتكرار، ويخزن (يحفظ) البرنامج فى ذاكرة (حافظة)، والحافظات أنواع، لا يتسع المجال لتناولها هنا. والبرنامج فى العادة يوضع بواسطة عقل، وعلى علم، ويتصف

البرنامج بالثبات، أو قد يجوز أن نسميه بالترتيب المكنون، والبرنامج بديل متواضع للعقل، ويوضع ليحكم ما لا عقل له.

وحين يحدث خطأ بالشفرة (Bug) يرتبك البرنامج وتحيد النتائج عن مسارها المرسوم فيختل الأداء، وحينئذ يلزم تدخل العقل لتصحيح ما حدث من خلل ليعود للبرنامج سلامته. ويتعذر تصور إمكانية وجود برنامج بدون عقل صممه أو بدون ذاكرة تحفظه، ولذلك فالبرنامج منتج عقلى ينوب عن العقل فى الكثير من الأعمال المتكررة؛ لأن العقل يمل التكرار وينبذه بسرعة.

والبرنامج منتج عقلى شبه جامد، وضع بواسطة عقل حى (قائد) بالغ المرونة. وحين نجد نظما تعمل وفق برامج محكمة، يجب أن نستنتج ونشهد بوجود مبرمج متمكن، ولله المثل الأعلى. وحين نجد برامج بالغة الدقة وتفوق الحصر وتعمل معا متعاونة بتناغم بديع، يجب أن نفيق من الغفلة، ونسأل ونبحث عمن وضعها فنحمده ونمجده.

ومستوى البرنامج يحكم مستوى الأداء، فالبرنامج الجيد يوفر الفرصة لتحقيق نتائج جيدة، والبرنامج الردئ لا ينتظر منه نتائج جيدة. ولا يلام البرنامج ولا يشكر، ولكن التقدير أو اللوم إنما يوجه لمن وضع ذلك البرنامج.

الآلة أو العضلات يمكن أن تستقبل نسية من الإشارات المتنوعة وتستجيب لها وفق شفرة محددة، لكنها لا تعقلها ولا يمكن أن تفكر فيها أو تتدبر معانيها. فقط تدور بها وفق المسارات والقنوات (السبل) المرسومة فى البرنامج، ولا تعرف معنى الخطأ أو الصواب، إنما واضع البرنامج هو الذى يحدد المقبول والمرفوض من النتائج التى تتحقق.

والبرنامج – فى الغالب – يوضع للتعامل مع الجانب المادى (المحدد) للأشياء، كتشغيل ماكينة أو ضبط تتابع عمليات محددة. والبرنامج لا يستطيع التعامل إلا مع مدخلات نمطية معينة

ومحددة سلفا، وحين يتعرض لمدخلات مغايرة أو خادعة ترتبك الأمور ويفشل البرنامج فى التجاوب الصحيح معها.
ومنذ هبوط جدنا آدم - عليه السلام - إلى الأرض والإنسان بعقله يضع الخطط والبرامج وينفذها ويطورها. وكل ما يخطط له الإنسان يقع فى مستوى البرامج، بدءا ببرامج الصيد منذ القدم ووصولا إلى برامج الكمبيوتر وغزو الفضاء - فى الوقت الراهن.

مستوى الفطرة

الفطرة هى خواص نظام محكم، خلقها العليم الخبير - سبحانه وتعالى - ووراءها علم مكنون قد نسميه - أحيانا - شفرة وراثية ، "جين" ، نظام الحامض النووى ، نظام الذرة، نظام المجرة ، طبيعة المغناطيسية ، خاصية النبات... إلخ، لكن يوجد وراء كل ذلك علم مكنون بشكل أو بآخر نكتشف منه ما يأذن به من أودعه - سبحانه وتعالى. وبالتصور الحاضر - لدى المؤلف - فالفطرة نتصورها كنتاج تشابك برامج فائقة متكاملة تشكل معا نظاما يتجه نحو غاية، أو لتحقيق وظيفة. والفطرة، بقوة تصميم برامجها الفائقة الإحكام، تعمل بتلقانية (حية) وتأبى إلا أن تصل إلى غايتها، ولذلك فمقاومة الفطرة (أو محاربتها) يدل على الجهل بطبيعتها، وهذه المقاومة تكون باهظة التكلفة، والأمثلة كثيرة. وذلك لأن الفطرة تتصف بالاستقرار وفى نفس الوقت تمتلك نسبة من المرونة لا تتوفر فى البرنامج الواحد، وهى أقل جمودا منه ولذلك فلديها قدر من إمكانية المراوغة والتوافق والتحور العجيب. والاستقرار الطبيعى للفطرة ناتج من حكمة تسخيرها فى إطار مرسوم.
وينبثق من الفطرة - ببرامجها - ما قد نسميه السلوك الغريزى أو الفطرى نحو الهدف أو الغاية، ومعنى السلوك قد يكون هو

الذى ألمح إليه الذكر الحكيم ضمن قوله عز وجل: ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ ، أى سلوكها السابق. والسلوك الفطرى هو درجة من درجات الهداية (التلقائية) المودعة فى المخلوقات.
والمخلوقات التى تتصرف أساسا بالفطرة فقط، لا لوم عليها إن أظهرت ما نتصوره (ببعض عقولنا) ضررا، ولا فضل لها إن ظهر منها ما نحسبه خيرا، ولكن الأمر يرجع من قبل ومن بعد لمن أبدع وأودع فيها أسرار تلك الفطرة.
والفطرة أيضا يكون أغلب تعاملاتها إن لم تكن كلها مع المادة والمحسوسات، ويندر أن تتعامل مع المعانى أو ما وراء المحسوسات. فالمعدة الخاوية تدفع صاحبها للبحث عن الطعام، ووسائل الإغراء والإثارة تحرك الشهوة تلقائيا، وهكذا...
وصنع الفطرة مقدرة ينفرد بها العلى القدير – جل شأنه – ولا يملك الإنسان إلا أن يقر بالفطر المختلفة، ويتلمس المداخل المناسبة للتعامل معها. وحتى ما يسمى بالهندسة الوراثية هى مجرد مداخل لتحسس بعض جوانب الفطر بغرض توظيف بعض طاقاتها فيما يود الإنسان تحقيقه، والتعامل فى ذلك يجب أن يكون فى غاية الحذر؛ لأن درجات التعقيد والإتقان تفوق التصورات، وهذا التعامل يحدث مع برامج غير مفهومة الإشارة أو اللغة. ونعتذر عن استخدام تلك المصطلحات فى هذا المجال؛ لأننا لا نعرف غيرها.
وأيضا الفطرة لا تبدع بذاتها لكن نرى فيها إبداعات هى من صنع من خلقها وهيأها وهداها لتمثل بديع صنعه تبارك وتعالى علوا كبيرا. فمن الفطرة التجاذب الطبيعي بين بعض الأشياء والتنافر بين البعض الآخر، والارتياح للكلمة الطيبة والنفور من الغلظة، ومنها رقود الطيور على بيضها حتى يفقس، وتعلق صغار الحيوانات بأمهاتها دون أن تفهم السبب، وتوجه أغصان النبات ناحية الضوء، وتوجه الجذور فى عمق التربة. هذه السلوكيات

وأمثالها تتم بالفطرة وتحدث بلا تفلسف وبدون حسابات ولا مراجعات بالمعنى المتعارف عليه، وهى من رحمة الخلاق بخلقه. ومن عظيم رحمة الله - جلا وعلا - بخلقه أن الفطرة تعمل بيسر شديد دون الحاجة إلى فهم أو تصور؛ فالتصور كثيرا ما ينخدع، أما الفطرة فنادرا ما تنخدع؛ لأنها تتعامل مع الحقائق والوقائع مباشرة وكما هى دون الحاجة إلى تصور، فشعورنا بالشبع لا نشك فيه وكذلك الشعور بالرغبة فى التبول وما شابه ذلك؛ فلا نعرف للمعدة ولا للمثانة وسيلة تصور ولا حساب، ويستوى فى ذلك الإنسان والبهائم. فخلايا المعدة تتعامل مع المادة بخصائصها الطبيعية وليس بالتصور ولا بالفهم.

محتويات العقل

رغم أننا نعيش فى عالم مادى تماما إلا أن العقل فى الحقيقة لا يحتوى أى مادة على الإطلاق، إنما هو نظام معلوماتى يحتوى قدرا من المعلومات عن بعض الأشياء المادية التى يحسبها مؤكدة، والأشياء الغير مادية التى يتشكك فى بعضها، وهذا هو علم الإنسان، العلم القليل. بمعنى أننا حين نفتح المخ - الذى هو وعاء العقل - فلن نجد فيه شيئا مما يحركنا ويدفعنا ويؤثر فينا سلبا أو إيجابا، فيسرنا أو يحزننا، لكن سنرى مكونات عضوية لا تتميز كثيرا فى مخ العالِم عنها فى مخ الجاهل أو فى مخ المهتدى عنها فى مخ الضال.

ولو افترضنا أننا فتحنا مخ إنسان توجهه شرقى وفى مرة أخرى فتحنا مخه بعد أن أصبح غربي التوجه فلن نجد أى تغير فى مخه بل سنجده نفس المخ، فالمخ من حيث التركيب المادى هو بناء مظلم ينيره العلم الصحيح، والعلم وحده.

وما يوجد فى العقل هو معلومات ناقصة دائما، معلومات تتفاعل فتولد نتائج معنوية، على حسب نشاط الذهن. من هذه المعلومات

ما يتفاعل بسرعة ومنها ما هو بطئ التفاعل ومنها ما هو خامل وما يتلاشى. وهذه المعلومات (المعنوية) ذات مؤثرات انفعالية، فحين ننظر لشئ محدد كالرمانة – مثلا – فما يصل للعقل ليس الرمانة إنما تأثيرات صورة غير دقيقة لها، وتلك الصورة الغير دقيقة والبالغة التواضع تترجم فى العقل إلى معلومات يختزن بعضها ويفقد الآخر؛ لأنه لم يبلغ مستوى التأثير الذى يثبت لفترة.

وكلما تكررت رؤيتنا للرمانة ودققنا النظر إليها كلما تدعمت وثبتت معلوماتنا عنها وتوطدت علاقتنا بها، وحين نفتحها ونتذوقها ونأكلها تزيد معلوماتنا عنها أكثر ونكتشف ضعف موثوقيتنا فى معلوماتنا السابقة بخصوصها، وكل ما فى العقل أشبه ما يكون بالغيب؛ لأننا لو شققنا الدماغ فلن نجد الرمانة فيه.

ولا فارق يذكر بين الرمانه التى نراها فى اليقظة وتلك التى نراها فى المنام، بل إن صورة الحبيب الذى نراه فى المنام قد تكون أجمل من صورة الحبيب حين نراه فى اليقظة، والصورة المرسومة للمحبوب فى العقل أشد جاذبية من حقيقته حين يشتد قربنا منه. والتى تحركنا هى الصورة التى عقولنا، رغم أنها ليست هى الحقيقة.

وشيء قريب من ذلك هو الذى يحدد علاقة الطفل بأمه؛ لأنه يراها أغلب الوقت ويلمس حنانها وعطفها، ويتذوق ويرضع لبنها، ولذلك فهى أهم شيء فى حياته؛ لأن رمزها أصبح مرتبطا ومحاطا بأكبر حزمة معلومات فى عقله، ولكنه لا يعرف حقيقة ماهيتها. وحين يشب الصبى ويبلغ ويستقل بذاته يبدأ فى نسيان الكثير من المعلومات عن رائحة أمه وطعم لبنها ولمسات حنانها وقد تفتر مشاعره نحوها؛ بسبب ضعف أو تغير المعلومات المختزنة فى (ذاكرة) عقله عنها.

وعقل الإنسان الحى دائما فى تغير وديناميكية، وجميع معلومات العقل يمكن أن تنمو وأيضا تنسى بمرور الوقت أو تحجب بسبب تلف فى المكونات العضوية لبعض خلايا وشبكات المخ.

والمعلومات التى تثبت فى العقل هى التى تحكم تصرفات الإنسان ويمكن أن نفسر بها تحولاته وتقلباته، وبسبب هذا التغير والديناميكية كان معلم البشرية (صلى الله عليه وسلم) يكثر من ترديد دعاء: *"يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك، وصرف قلبى لطاعتك"*.

ولا عجب فى أن نجد الملايين من أصحاب العقائد الفاسدة شديدى التمسك بعقائدهم؛ لأن لهذه العقائد ثوابت راسخة عقولهم يصعب زحزحتها إلا بصدمات شديدة أوبراهين عديدة تتفاعل لتكون رؤية جديدة، عندئذ يشعرون بهول ماكانوا فيه من ضياع.

ولا يشترط لرسوخ المعلومة فى العقل أن تكون صحيحة بل يكفى أن يتوفر لها عوامل التثبيت والربط بينها وبين بعض المعلومات الصحيحة ولو بطريق التلبيس.

ورغم ضعف معلوماتنا عن الأشياء عموما إلا أن معلوماتنا تكون أوضح نسبيا بخصوص الأشياء التى نصنعها بأيدينا، أو تلك التى نكثر من التعامل معها أو فيها. ومن هنا تتكون الخبرة وهى أشد تأثيرا فى العقل من العلم النظرى أو الخواطر الطيارة.

وأيضا يمكن أن نستنتج من هنا أن النص الذى نحفظه يؤثر فينا أكثر من النص الذى نقرأه، ولذلك يوصى دوما بحفظ النصوص والمعلومات المهمة. كما يمكن القول بأن النص الذى نحفظه بحروفه يكون أقل تأثيرا من المعلومات التى نلتقطها بالخبرة؛ لأن معلومات الخبرة تكون أكثر اتساقا مع المعلومات ذات العلاقة الفطرية المختزنة بذاكرة العقل، بعكس النص المحفوظ بحروفه والذى قلما يجد فرصته فى التفاعل مع معلومات العقل بسبب ضعف العلاقة (الفطرية) بينه وبينها. ومما يؤيد ذلك أننا نوظف النص الذى نختاره نحن (بعقولنا) أكثر من توظيفنا للنص

الذى يختاره لنا الغير. وما نختاره نحن يكون - عادة - أحب إلينا مما يختاره الغير لنا. وبسهولة يمكن تشكيكنا فيما اخترناه إن لم نكن خبراء فيه، أو نثق بأننا أعلم الناس به، وما الشك إلا وليد المعلومات الناقصة والمختلطة.
فى كل عقل نوعيات من المعلومات تعتبر ركائز شبه ثابتة يصعب زحزحتها لا بالسكين ولا بالسيف، لكن بإثبات المعلومات المضادة، وحين تهتز هذه الثوابت يهتز الكيان البشرى كله. ويمكن أن نسمى مثل هذه المعلومات بالثوابت العقلية؛ نظرا لشدة رسوخها، ويليها بعد ذلك الأضعف فالأضعف، وجميع المعلومات قابلة للتشكيك. وسبحان الذى افتتح كتابه المبين بقطع طريق الشك فيه بقوله - عز من قائل: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾، فما فيه هو العلم الخالص والنور الساطع والحق المبين، ومن يعقل يجد ﴿فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب﴾.
ومادام العقل لا يحتوى شيئا حقيقيا (ماديا) فيكون الفارق دقيقا - أو شبه منعدم - بين نوعية المعلومات المتعلقة بالحقيقة وتلك المتعلقة بالوهم. وأحيانا ما تختلط الصور التى شاهدناها فى اليقظة بتلك التى رأيناها فى المنام، يحدث ذلك بمرور الوقت دون أن نشعر.
لقد كان ثبوت الأطوال والكتل والزمن من الأمور البديهية التى لا تقبل المناقشة، ولكن النظرية النسبية - مثلا - بينت أنه من الخطأ أن نأخذ الأمور التى تبدو بديهيات كقضية مسلمة، أو أن يتعصب الإنسان لعقيدة معينة ويجعل تفكيره عبدا لها[٤].
ويستفاد من التحليل السابق أننا لا نعرف حقيقة أى شىء، إنما هى بعض المعلومات عن بعض الأشياء، ولذلك يمكن دوما أن نشك ونتشكك بخصوص مسألة ما، ولا نستريح حتى نحسم هذا الشك فنصل إلى اليقين أو ما نحسبه اليقين. وحين يشك الإنسان

أنه فى حالة يقظة فيحاول الواحد أن يجرى تجربة مادية خاصة ومحددة للتأكد من يقظته، وذلك كأن يقرص نفسه فى موضع محدد ويستشعر نفس الإحساس بالقرص الذى يعرفه، فتكون تلك فى نظره تجربة من تصميمه هو وخارجة عن نطاق الحلم الذى يتوهمه، وحدثت بالمفردات المادية التى يثق فى وجودها.
ولكن مالحل إذا كان ما نحسبه – بكل تأكيد – يقظه وانتباه كامل هو قمة النوم والغفلة، وأن المعلومة الأدق، التى وردت فى الحديث الشريف، هى أن "*الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا*"!
الأمر جد وبالغ الخطورة.
ومن العسير الوثوق الكامل فى المعلومات التى يتوصل إليها العقل البشرى بذاته، أو فى سلامة الطريق الذى يرسمه الإنسان بناء على المعلومات المادية وحدها، ومصداق ذلك قول ربنا عز وجل: ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ الآيتان ١٠٣،١٠٤ – سورة الكهف.
وما يقلق الكثير من البشر أنهم يريدون التأكيد والتأكيد الشديد، لكن لا يوجد شىء يتأكدون منه أو يثقون فيه بنسبة ١٠٠٪!
ومن هنا تنشأ الوساوس والحيرة والقلق، فيلجأون إلى ما يسمى بالضمان والتأمين، لكن تأمين بماذا وضد ماذا أو من!

مستوى العقل

فى بداية هذا الجزء يلزم أن نعيد التذكير بالمقصود بالعقل؛ حتى لا يختلط القول وسط هذه التشابكات. ونقر بعدم القدرة على تحديد ماهية العقل بالضبط؛ لأن فيه من أسرار الخلاق العليم ما لا نحيط به، ولكن هذا لا يمنع من إعتبار العقل (البشرى) على

أنه وسيلة تصورنا للوجود وتعاملنا معه، ويحدث ذلك بتشابكات من العمليات المنطقية التى تدعمها ذاكرة حية، وقد فصلنا ذلك فى كتاب "العقل: تنظيمه وإدارته"[٨].

والعقل هو القائد والمنسق العام للسلوك البشرى، وهو المناخ المناسب لحياة العلم، أى أن العلم لا يحيا ولا يتكاثر إلا فى العقل، أما الكتب فهى وسيلة حفظ العلم المجمد لحين تنشيطه فى العقل ليثمر. فلا وجود للعقل بدون علم، ولا حياة للعلم بدون عقل. وكل ما يدور فى العقل البشرى هو معنوى بحت، حتى ولوكان متعلقا بأشياء مادية إلا أنها تترجم إلى رموز ومعانى. فمن ينظر إلى الشجرة ليس فى مخه شجرة ولكن مجموعة رموز تمثل نموذج معين للشجرة.

وكل كيان (أو مخلوق) حى يبدو أن له نوع من العقل (المنطقيات) يناسبه - أو على الأقل فطرة مهدية - مهما تدنى ذلك المخلوق (فى نظرنا)، أما غير الأحياء فعقولها يتعذر علينا الإحساس بها أو الحديث بشأنها الآن، ولكل أن يفهم ما يفهم من قول العليم الخبير - سبحانه وتعالى: ﴿الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾ الآية ٥٠ - سورة طه. فالهداية - فى فهمنا - تمر من خلال أحد أو بعض المستويات الحاكمة.

وبالنسبة للكائن الحى، فالخلية الحية تبدو كنظام متكامل له إدارة وتوجيه وضوابط، مما يعنى وجود نوع من العقل الفطرى المحدود أو نظام تحكم ما، قد لا ندرك ماهيته لكنه موجود. وقد تكون وسيلتنا لاستشعار وجود العقل الفطرى (أو النظام الحاكم) هى رصد الحركة الهادفة، أى الحركة نحو هدف محدد أو فائدة ما والابتعاد عن مصدر الخطر أو الضرر. فحركة النبات الذى يدور مع الحركة النسبية للشمس - نبات دوار الشمس - هى حركة مهدية بنوع ما من الهداية لا نعرفها لكن فاعليتها واضحة بلا لبس. وحين نجد نبات الفلفل الحار بجوار نبات العنب فى

نفس التربة وكل منهما ثمرته تختلف بشدة عن الآخر، رغم أنه «يسقى بماء واحد»، فذلك يدل على وجود ذاكرة (وهى لب العقل وركيزته)، ووجود وسائل استشعار، وحدوث عمليات مقارنة – مع ما فى الذاكرة – يتم على أساسها تقرير القبول أو الرفض، والسماح أو المنع، وهذه الوظائف المهدية يتحذر إنكارها، وإن كان ينقصها القدرة على التصور والتطوير، ربما بسبب محدودية الذاكرة، وغياب العقل بالمعنى المتعارف عليه لدينا.
معلوم أن مثل هذه السوكيات تسمى الغريزة – فى العديد من المراجع العلمية – ربما لأنها تبدو شبه تلقائية، ولكننا هنا سنعتبرها تنوعات من الهداية، قد تكون – فى تصورنا – متدنية المرتبة بالنسبة لسعة حدود العقل البشرى، لكن الحركة المنظمة يصعب على العاقل أن ينكر روعتها، بل إنها تفرض احترام أسلوب إدارتها، وهذا على عكس ما يسمى بالحركات أو السلوكيات الفوضوية أو العبثية.
وبالتصور الهندسى قد نزعم (أو نفترض) أن فى الكائن الحى – كالإنسان مثلا – فطرا فرعية بقدر عدد خلاياه الحية، وكل مجموعة خلايا تكون نظاما أعلى كالعضلة أو العظمة أو الغدة ... إلخ، وكل مجموعة من هذه النظم تكون جهازا، كالجهاز الدورى أو التنفسى أو البولى أو العصبى... وهكذا.
وعلى ذلك يمكن أن نتصور عقولا فرعية عديدة فى الإنسان يحكمها معنويا – على الإجمال – العقل العام (أو الرئيس)، وهذا هو المقصود كلما ذكرت كلمة العقل بالنسبة للإنسان، وهو أعلى المستويات الحاكمة التى نعرفها على ظهر الأرض.
وحين تكون الخلية سليمة نجدها تؤدى دورها بمنتهى الروعة – بهدى فاطرها سبحانه وتعالى – وحين يصيبها الضر نجدها تتصرف بجنون – أو قل بلا عقل ، ويؤثر ذلك بعد حين على النظام الفرعى الذى تنتسب إليه ثم على النظام الكلى بعد فيما

بعد. ويلاحظ أن كل مجموعة خلايا تتصرف فى حدود ما تعقل هى، بغض النظر عن حال بقية الأنظمة الأخرى التى تشترك معها فى الكيان البشرى. فتجد خلايا وغدد تنبه لحالة العطش وغدد تنبه للجوع وأخرى تحرك شهوة ما وهكذا، كل ذلك يحدث بإفرازات (شفرات مادية)، وعلى العقل العام أن ينسق ويقرر الاستجابة أو التأجيل أو المنع المؤقت؛ لأن رؤيته يفترض أنها أوسع وقراراته أحكم. أما إن إستجاب العقل العام فوريا لكل ما تطلبه النظم الفرعية (أى ما يسمى بالغرائز أو الشهوات) فعندئذ يمكن أن نصفه بالضعف المعنوى رغم سلامته العضوية، وتلك المصيبة شائعة وهى من أبرز أسباب الهلاك. ولا حساب على العقول الفرعية رغم أنها محركة؛ لأنها لا تملك القرار الرئيسى، فالذى يملكه هو العقل العام، ولذلك فهو الذى سيسأل ويحاسب أمام ربه – سبحانه وتعالى.

ومن العجيب أن ما نتصوره متدنيا فى خلقته أو عقليته، يخبرنا ربنا أنه يسلك فى سيرته سلوكا غاية فى العجب كهدهد سليمان (عليه السلام) والنملة التى تعجب من قولها، والأرض والجبال، كجبل أحد الذى خاطبه خير البرية (صلى الله عليه وسلم)، وتعاون المياه مع نوح وموسى عليهما سلام الله.

ومع تنوع وتدرج مستويات العقول البشرية العامة فقد يكون من المفيد للتحليل العام أن نصنفها من ناحية أخرى إلى:

١- عقل متسق مع هدى خالقه، وهذا هو العقل الأمثل.

٢- عقل ضال، وهو أحط أنواع العقول.

٣- تنوعات كثيرة بين النوعين السابقين.

ومعلومات العقول الفرعية مكتوبة بشفرات مادية.وتجرى محاولات علمية لفك رموز بعضها منذ عشرات السنين. ولا تسأل الأنظمة الفرعية عن هذه المعلومات المودعة فيها أو السلوكيات الناجمة عنها؛ لأنها مسخرة وتعمل فى حدود البرامج

المتكاملة الموضوعة لها، وفى ضوء الظروف المحيطة بها. أما العقل العام فبرنامجه متغير طبقا لتغير أو تطور ما فى ذاكرته من معلومات أغلبها معنوى ومكتسب.

وفى ضوء التحليلات السابقة يمكن اعتبار كل البشر أصحاب عقول - شتى - تختلف فى النوعية أو الدرجة، وكل يتصرف بعقله وإن كان يتأثر بنتاج عقل غيره وهنا تبرز مسئولية الموجهين، الناصحين منهم والمضللين.

والعجيب أن المجنون يمكن أن تختلط فى ذاكرته أشياء كثيرة، فيتخيل نفسه عظيما، ويرى الحاكم صعلوكا أو الخفير وزيرا، لكن ارتباطه بخالقه يظل هو الأشد حضورا فى الذاكرة، فتجد الكثيرين من المجانين يذهبون تلقائيا إلى دور العبادة وكثيرا ما يرددون أسماء الله ويسألونه - سبحانه وتعالى - حاجاتهم، حتى ولو كانوا ملحدين أيام وعيهم الماضية.

منظومة التصور

التصـور ملكـة بشـرية يفتقدهـا الجمــاد والنبـات وإلــى حـد مــا العجماوات. ولذلك فتعامل النبات مع الجماد هو تعامل من النــوع المـادى البحـت. وملكـة التصـور البشـرية (العقليــة) تربــط بيــن الماضى والحاضر والمستقبل فـى الفهـم البشـرى لتتـابع الأمـور والتطورات. فنحن بعقولنا البشرية نرى ما تـرى مـن الوجـود أو نتصوره ؛ فما للوجـود – أو الواقـع – فـى عقولنـا إلا تصوراتنـا (الرمزية) له، فحيـن ننظـر للشـمس – مثـلا – أو نتذكرهـا فمـا يوجد فى عقولنا هو إحدى صورها وليست الشمس ذاتهـا، وهـذه الصورة تتشكل وتتلـون وتنمـو بمعلوماتنـا عـن الشـىء. وبعبـارة أخرى فإن ما نعرفه عن الوجـود هـو فـى الأسـاس تصوراتنـا – المختلفة – له، وبقدر صحة التصور تكون صحة الإدراك والعلـم والفهم والقرب من الحقائق وبالتالى صواب سلوكياتنا فى الحيــاة؛ فعمـق فهمنـا للواقـع هـو الـذى يقربنـا مـن حسـن إدراك الحقــائق الكامنة خلفه. وتصورنـا عموما ليس هو الحقيقة ولا الواقع، لكنـه تمثيـلات رمزيـة محـدودة ومتغيـرة لبعـض مظــاهر الحقيقــة أو أوجهها أو آثارها، أو للواقع الذى هو نتاج تفاعلات الحقائق. أمـا الفكر فهو نــاتج تفـاعلات التصـورات العقليـة، والتصـورات هـى أساس عمل العقل ووجوده. وحين يعجز العقل عن تصور قضيـة فإنه يرفضها أو يحاول تجنبها.

وكثيرا ما يكون التصور مختلفا عن الواقع أو مغايرا له إلى حد كبير، والأحلام – لدى العقلاء – مثال واضح لذلك، فالنائم على الفراش قد يرى أنه يجرى، أو يطير فى الهواء، أو يصيد السمك وهو يمشى على الماء، وما شابه ذلك، وهذا كله بعيد عن الواقع تماما، فلا يوجد على فراشه ماء ولا سمك. والإنسان ينفعل بهذه الصور الغير موجودة فى الواقع حال نومه، ويحدث أشياء شبيهة لذلك فى أحلام اليقظة، وفى لحظات الشرود والانفعال الزائد.

ومشاكل الغرور والهوس والفصام والبارانويا والجنون هى حالات من الاضطراب أو الاختلال وتداخل الصور الذهنية التى يعايش معظم الناس بعض درجاتها دون أن يشعروا بخداعها، وهى حالات مرضية متنوعة، فالمجنون يرى، أو يتشكل فى ذهنه صورا لا يشك فى صحتها، رغم أن مفردات (مكونات) الواقع الفعلى لا تدعمها.

ويؤكد القرآن الكريم فى العديد من الآيات أن أكثر الناس لا يعلمون – مايكفى عن الحقائق – وبالتالى فلا يعقلون مايجرى عليهم ومن حولهم، فلو عقلوها لترقت سلوكياتهم، وتلك الحقيقة المرة يتعذر على أكثر الناس تصورها، أو تقبل خبرها، ومن يقبلها فإنه يقبلها على الناس أما على نفسه فلا، ولا يغير ذلك النفى من الحقيقة المرة شيئا. ومعظم الأخطاء البشرية نتجت عن التصورات الخاطئة (أو العاجزة) للأشياء.

وما يؤثر فينا ماديا ومعنويا هو حقيقة الأمر الواقع، ولكن نوعية تصوراتنا للواقع هى التى تؤثر فينا نفسيا ومعنويا وتحدد نوعية سلوكياتنا تجاه الواقع، وليس الواقع المادى نفسه هو الذى يحدد ذلك التأثير المعنوى. فالسلوك يحكمه التصور العقلى للواقع والمتوقع واستيعاب ما وقع. والسبب الرئيسى للانتحار هو أن صورة الواقع والمستقبل قد اسودت تماما فى عقل الشخص وهو لايدرك عاقبة مايقدم عليه.

وتصور فلان لموقف - أو واقع - معين لا يتطابق أبدا مع تصور علان لنفس الموقف (أو الأمر)، حتى لو اتفقا حول الموقف بشكل عام، لكن تفاصيل ودقائق الصورة وألوانها حتما تختلف، لذلك يتباين سلوك البشر تجاه نفس القضية.
واختلاف التصورات هو أبرز أسباب الخلافات والصراعات، فالحقيقة المجردة واحدة ولو صح تصورنا لها لكان ذلك سببا كافيا لتوحدنا والتفافنا حولها، ولكن قصور وشدة تباين التصورات يولد التناقضات وينشئ الخلافات. وكما أن صور الإدراك تتعدد فاللغات والأساليب والمناهج التى نستخدمها فى التفكير والتعبير، والنماذج التى فى عقولنا تتعدد هى أيضا. وحين يشتد التباين بين التصور والواقع عندئذ تتهيأ الفرص والمناخ النفسى المسبب لحدوث الصدام مع الواقع، بدلا من التعامل معه بالحكمة وبعد النظر.
والمقدرة على التصور تختلف من شخص لآخر، والأشياء التى يسهل تصورها يسهل التعامل معها أو تصديق خبر وجودها، ويقل الخلاف حولها. أما ما يتعذر تصوره فيمكن بالعقل الاستدلال عليه بما يشبهه أو بآثاره، كالكهرباء والجاذبية - مثلا - حيث يمكن متابعة تأثيراتها ومسبباتها وبالتالى مستوياتها دون أن نراها. أما مالا نعرف له شبيها ولا صورة ولا مفردات فيستحيل تصوره بشكل صحيح أو شبه صحيح. واستحالة التصور لا تبرر الإنكار ما دامت البراهين العقلية تدل على وجود حقيقة ما خافية. وحين يعجز الدهماء عن التصور يجد الفنانون فرصتهم فى إبراز ما لديهم من تصورات (خاصة) ويعبرون عن ذلك بشتى وسائل التصوير الفنية.
وحضور الصورة الجاهزة أوالمجهزة يلقى رواجا فى محيط العقول الكسالى التى لا تفكر ولا تتدبر. ولذلك ففى محيط الجهل تمجد الصور والتماثيل وتطبع فى العقول كما صورت وتكتسب وجودا زائفا وقداسة مصطنعة، وفى ذلك ظلم للحقيقة وافتراء

عليها، ولا شك فى أن الجهـال يشكلون جزءا بائسا مـن الواقـع الأليم.

أما حين تستنير العقول – بالمعلومات الصحيحة – فيمكنهـا ذاتيـا أن تبصر وتتعامل ببساطة مع الحقائق وإن كانت مكنونة، ولذلـك لم نسمع أن أحدا من صحابـة رسـول رب العـالمين ولا التـابعين ولا الصالحين فكر فى رسـم صـورة لإلـه ولا نبـى ولا ملـك ولا ولى ولا حاكم ولا غيره؛ لأن الصور تكون فى العادة مـن صنـع عقل المصور (الفنان) لمساعدة العاجز عن التصور. ولذلك تجد كتـب الأطفـال لا تلقـى رواجا إلا إذا ملئـت بـالصور؛ لتسـهيل التصور لديهم، وللأسف فالإكثـار مـن هـذه الصـور يعرقـل نمـو الخيال لدى النشء ويجمده فى أطر معينة. والأصنام أبـرز دليـل على خطورة الصور الجاهزة فى تشويه العقول، فـالصنم صـورة جامدة ميته صنعت من خلال تصور نحات لكـن صورهـا تنطبـع فى الأذهان ويبنى عليها ما يبنى.

الصورة الذهنية

المفهوم المعتاد للصورة (المحسوسة) أنها فى الأسـاس مجموعـة – أو مجموعات – من المفردات، أقل ما نعرفه منها هـو النقطـة الدقيقة (المجسـدة) أو الوحـدة الصغـرى لمفـردات الأشياء الغيـر مادية التى تلتقطها الحواس، كأدق صوت محسوس أو أدق تغيـر لونـى. ويجـرى العقـل علـى هـذه المفـردات حسـابات ومقارنـات وتباديل وتوافيق ويكملهـا بإضافـات مـن عنـده دون أن يشـعر أو يقصد ثم يترجمها – بطريقته – إلى ما نسـميه بـالصورة الذهنيـة للواقع. فصور العناصر الدقيقة التـى تستقبلها الحـواس المختلفـة هى مفردات التصورات. ونفس مجموعـة العنـاصر (المفـرادات) يجمعهـا ويتصورهـا كـل عقـل بحسـاباته المبنيـة علـى خبراتـه وخلفياته ورغباته هو. ومفردات الصـورة قابلة للتداخل والتفـاعل

مع مفردات الصور الأخرى، أى أنه توجد قواسم مشتركة بين العديد من الصور، وهذه القواسم هى منطلقات ودعائم التصور، وكلما كانت هذه القواسم صادقة فى التعبير عن الحقيقة كلما كان الذهن عاقلا، أما إن كانت وهمية فإنها تقود للخلل الفكرى وما يترتب عليه.

وما يترتب على سوء التصور أخطر من سوء التصور ذاته؛ فالمتيقن يبنى على اليقين والواهم أيضا يبنى ولكن على الوهم، وشتان بين بنيان وبنيان.

والصورة الذهنية يبدو أن أساسها تاريخى؛ لأن الإنسان حين يولد لا يكاد يعرف شيئا تصوريا بالمرة، وبمرور الوقت تتشكل فى عقله الصور – تلقائيا – بتجميعات المفردات والمعلومات التى يلتقطها بحواسه. المفردات التى تصل أولا هى التى تشكل أرضية الصور الذهنية وملامحها العامة وتكتسب تواجدا يصعب زحزحته، أما المفردات والمعلومات التالية (تاريخيا) فتساهم فى التطوير التدريجى لتلك الصور الأولية عن الأشياء. وما لايلفت انتباهنا أو ينبهنا إليه منبه فلا يدخل حساباتنا ولا فى تصوراتنا وقد يكون هاما أو بالغ الأهمية والخطورة ونحن لاندرى.

والذهن النشط تتطور لديه الصور الذهنية باستمرار وكنتيجة لما يلتقط من معلومات وأخبار وما يكتسب من خبرات، ولا يشترط أن يكون التطور فى الاتجاه الصحيح؛ فعتاولة التضليل هم أضل الناس ومن أنشطهم ذهنيا لكنهم يفتقدون مقومات التصور الصحيح بسبب افتقادهم لمعلومات جوهرية أساسية. ولا فرق فى الذاكرة بين المعلومات المتعلقة بالحقيقة وتلك المتعلقة بالوهم فكلها قابلة للتخزين والتشغيل والتفاعل الذهنى وتشكيل التصورات والسلوكيات إلى أن يثبت فسادها.

وكثرة المعلومات وإن كانت صحيحة لا تكون تصورا صحيحا للوجود مالم يستخلص منها معانى ودلالات جوهرية. وما أكثر المتخصصين فى العلوم الطبيعية والفنية والسياسية وهم أضل من

الأنعام، ويتحركون بفكرهم الأعمى - فى الاتجاهات الخاطئة - نحو أسوأ العواقب وأشد الخسران؛ لأنهم لا يرون الخطوط الموصلة لحقائق الوجود، وتفكيرههم مقيد بالنماذج والصور الخاطئة المصنوعة فى أذهانهم.

التحليل والتركيب

التحليل والتركيب من أبرز الأنشطة العقلية والأساليب العلمية المعروفة لدى المفكرين والباحثين. بالتحليل يتعمق الفهم، تظهر بعض الخفايا، وبالتركيب تتجاور الجزئيات فتتكون الصور والتصورات. وكل من التحليل والتركيب شديد الحساسية لمدى الدقة، لكن التركيب أشد رغم أن التحليل هو الأسبق زمنيا. ودرجة الدقة تحكم درجة صحة التصور. وفى التركيب فقد جرت العادة على تجميع الجزئيات العلمية مجاورة لبعضهاالبعض بغرض تكملة الصورة الكلية الصحيحة، كما جرت العادة على تطبيق تتابعات الماضى لاستقراء صورة المستقبل. ولا مفر من اتباع هذه الأساليب، فى الغالب؛ لأن بدائلها غير متاحة أو تبدو محدودة الفعالية.

وفى استخدام هذه الأساليب يجب الحذر من تأثيرات المجاهيل الغائبة عن عقولنا أو عن النماذج التى نصنعها؛ لأن جهلنا بالشيء لا يلغى وجوده ولا تأثيراته السلبية على تصوراتنا.

الطغيان المادى يكتسح القيم والأعراف، ولذلك فقد اختلت موازين الفكر والثقافة والسلوك. والمال مثلا هو يعد نعمة وأحد مظاهر القوة، التى تطلب بها الدنيا، ولابأس. لكن المصيبة تحدث حينما يقع المال فى أيدى الجهلاء والسفهاء الذين يفضلون الحرام على الحلال، فيضيع الحق فى مواكب الباطل ويتردى السلوك وتضيع الأخلاق، وذلك يعنى تدنى الجودة البشرية؛ بسبب تشوه التصور ثم السلوك.

ومع التطور التكنولوجى (المادى) فقد تراجع دور الفلسفة والعلوم الإنسانية - على مستوى العالم - وخفي علينا مدى ضحالة صوراتنا، لكن المدقق فى هذا الزحام المادى يمكنه أن يدرك أن عضلات العلوم الطبيعية والمادية قد أوصلت البشر لحالات الإحباط والاكتئاب وسلمته للعديد من الأمراض النفسية التى تتزايد مع تطور العلوم المادية.
إن ضرورة التكنولوجيا الرفيعة لا تخفى على العقلاء ولا ينكرونها، لكن الخطورة تكمن فى استعباد التكنولوجيا للإنسان؛ بطغيان ماديتها على الطبيعة المعنوية للتصورات العقلية.
ومن المؤسف أن الأجهزة المسئولة عن تربية النشء وتشكيل العقول وترقية الوجدان لم تكن على مستوى المسئولية، وأصبحت أجهزة الثقافة تركز على الحفلات والمهرجانات والزخارف وتبتعد عن كل ما هو جاد وجوهرى، فتجد أجهزة رعاية الشباب - مثلا - تهتم بأرجل اللاعبين وعضلاتهم وتتجاهل إنارة العقول وتزكية النفوس، فأى بشر يريدون؟!

موثوقية التصور

مما سبق تبرز مسألة مدى الثقة فى صحة تصوراتنا!؟؟ فكل فرد منا يتصور الوجود بدرجة ونوعية علمه به أو بما يعرفه عنه، أى بطريقته، أما الحقيقة المطلقة للوجود فلا يعلمها إلا الله - سبحانه وتعالى. ولا يوجد لدى المخلوق تصور ذاتى صحيح (يقينى) لحقائق الأشياء، رغم ما نعتبره مجازا حقائق علمية كالأبعاد والأوزان ومختلف القياسات والحسابات وظاهر القوانين؛ فغالبيتها الساحقة لا تخلو من عدم اليقين، على الأقل من ناحية الثبات للمدى البعيد. فنحن لا نعرف بالضبط حقيقة الأشياء التى يتراقص (يتموج) بعض الضوء الساقط منها على شبكية أعيننا، ولا حقيقة ما تلمسه أيدينا؛ لأنها قبل أن تصل

للعقل تعبر مسارات وتمر بتحولات لا نعرف نوعيتها بدقة ولا حقيقة كيفيتها. فقد يمكن أن نعرف بعض سلوكياتها وما نسميه خصائصها، لكننا كثيرا ما نعجز عن تفسير لماذا يحدث ذلك؟ وفى النهاية يقال: طبيعتها هكذا! ويقول المؤمن: سبحان الذى خلق.

والقضية الرئيسية لسيكولوجيا التصور هى: كيف نتمكن بمنظومة التصور أن نستخلص صورا موثوق فيها بخصوص ما يحيط بنا ثم مايغيب عنا، وعن الأمور الجوهرية التى تهمنا أو تعنينا، فكل تصوراتنا هى مجرد نماذج متواضعة لحقائق الأشياء وبعض معالم الواقع.

واللمحات المنيرة فى رسالة الهدى نفهم منها ما يتناسب مع خريطة تصوراتنا، ولا يوجد فهم نهائى لها. ولفظ اليقين الذى يرد فى تعبيراتنا إنما يدل على اليقين المجازى. أى أن الإنسان طوال حياته يعمل فى ظروف عدم اليقين، أو النقص فى كمال الصورة الذهنية، ووسط تغيراتها. ولذلك يتتابع لدينا ما نسميه بالمفاجآت، أى ما يثبت أنه يخالف تصوراتنا وتوقعاتنا إلى حد كبير.

وعلى أى الأحوال، فتوفر المزيد من العلم والمعلومات الصحيحة الصادقة يوسع الأفق ويعمق الرؤية ويقلل من عدم اليقين، ويساهم فى ضبط تصوراتنا نحو الكمال البعيد، وأيضا يزيد ثقتنا فيما نعرف. وبعبارة أخرى يمكن القول بأن ضم الصور الناقصة إلى بعضها يمكن أن يكون صورا أكثر اكتمالا، وتلك أهم فوائد تعدد وجهات النظر.

وتصوراتنا للشيء الحاضر تكون عادة أوثق من تصوراتنا للشيء الغائب، وأيضا تصوراتنا للأشياء المادية تكون أيسر من تصوراتنا للأشياء الغير مادية. ورسالات الهدى إنما جاءت من عند العليم الخبير ﴿رحمة للعالمين﴾ وخصوصا للعقول التى يرهقها

عجزها عن تصور الوجود ومعناه، وتصورها الغيبيات. ولذلك فتلك الرسالات تتضمن الأطر البالغة الصحة التى تضمن عدم ضلال التصورات الأساسية التى تشكل العقل الرشيد. وبدون هذه الأطر فلا عاصم للعقل من الضلال البعيد.
بناء على ما سبق يمكن القول بأن التصور الذاتى تتدنى موثوقيته ويجب الحذر الشديد من مخاطر ما يبنى عليه. وأوضح مثال على ذلك هو نوعية تصورات من يحاولون البحث عن أحياء عاقلة على الكواكب الأخرى كالمريخ وغيره. وسبب الخلل أن البحث يجرى على أساس التصور المحدود للمخلوقات الطينية الموجودة على كوكب الأرض فقط، هذا رغم أن رسالات الهدى تؤكد أن الكون ملئ بالمخلوقات الأخرى اللامادية كالملائكة والجن. والبحث فى حد ذاته لا غبار عليه لكن العيب أنه مبنى على تصور طينى خاطئ ومعيب.

التصور والسلوك

على أساس التصور تكون نوعية السلوك، فالتصور الشخصى هو المنطلق الأساسى للتعامل مع الوجود طوال مدة وجودنا فى هذه الدنيا، وبالتالى فهو الذى يبنى عليه أعمالنا التى سنحاسب عليها بين يدى أحكم الحاكمين – عز وجل – ولذلك فمن المهم جدا أن نصوب هذا التصور بأقصى ما نستطيع. وهذا الأمر يجب أن يحتل أولوية اهتمامات العقلاء؛ لأن فساد التصور يعنى فساد كل ما يبنى عليه من سلوكيات وأعمال وقرارات ومعتقدات، وبعبارة أخرى، فالتصورات الخادعة ينتج عنها توقعات شاردة ومعتقدات فاسدة وقرارات خاطئة وسلوكيات ضالة ... إلخ.
وعلى سبيل المثال، فسلوكيات المنافق إنما تنبع من تصوره (الفاسد) لحقيقة أصحاب السلطان من البشر، وبعد طول ضلال

يفاجأ المنافق بالزوال القهرى الخاطف لصاحب السلطة الذى لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، وأن ما حصله المنافق من وراء النفاق أسرع زوالا وأشد حسرة. فالسلوك البشرى محكوم بالتصورات، ومع تغير التصورات يتغير السلوك لكن بتناسبات واستجابات يصعب حسابها.

والتصورات هى التى تحدد أنماط الحياة المختلفة وترسم اتجاهات التطور فى نظم الحياة البشرية، منذ عهد أبينا آدم - عليه السلام - إلى الآن. والتطورات التى نشكلها فى البيئة من حولنا وفى نمط وواقع الحياة تنعكس فى أذهاننا وتؤثر بشدة على تصوراتنا ثم على سلوكياتنا. ويحدث ذلك فى دورات تراكمية التأثير، وبعد فترة يتعذر على الناس تصور إمكانية الحياة بدون التطويرات التى استحدثوها وألفوها، وإن سأل سائل: ألا يمكن الاستغناء تماما عن البلاستيك - مثلا - بسبب مضاره؟ يجد من الناس إنكارا شديدا لمثل هذا السؤال. وكأن البشرية ما عاشت ولا أقامت حضارات شامخة على مدى آلاف السنين بدون بلاستيك!

ومن يفتقد القدرة على التصور يتعذر عليه التطوير، وتلك صفة أغلب المسخرات، فسلوكياتها شبه ثابتة لا تتغير، ونظرا لثبات هذه السلوكيات فسميت "خصائص طبيعية"، وهى تسمية غير صحيحة ومن الأفضل أن نسميها السلوك أو السيرة كما سماها العليم الخبير إذ يقول عن عصا موسى - عليه السلام: ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ ، وكما تسمى فى علوم الهداية "بالسنن". ولولا هذا الثبات والاستقرار ﴿المسخر﴾ ما استطعنا أن نتعامل مع الأشياء من حولنا. وهذه السلوكيات قدرها العليم الخبير - جل وعلا - ويغيرها حين يريد، كما غير سلوك الماء مع موسى - عليه السلام ، وسلوك النار مع إبراهيم - سلام الله عليه. وحتى فى نطاق التسخير فالسلوكيات لنفس الشىء تستجيب بمرونه قدرها

ربها – عز وجل – لخدمة مقومات الحياة وفقا للظروف المحيطة، فالمادة فى بعض الظروف تكون جامدة وفى ظروف أخرى تصبح سائلة أو غازية، ويمكن أن تتحول إلى طاقة فتنساب فى الكون، وفى كل الحالات تسبح بعظمة خالقها – تباركت أسماؤه وجل شأنه.

ونظرا لأن الجمادات لا تملك القدرة على التصور فإن التصور لا دور له فى سلوكياتها، والتعامل فيما بينها يتم على أساس علاقات مادية مستقرة. فتفاعل (سلوك) الأكسجين – مثلا – مع مختلف العناصر محدد بتجرد ومؤكد بصرامة ويمكن أن نبنى عليه بأعلى موثوقية. وفى المقابل نجد أن تعامل أصحاب العقول مع بعضهم البعض أو تجاه مواقف معينة غير متجرد ولا محدد ولا مضمون ولا مؤكد.

الحواس والعقل

من الناحية الفنية يمكن القول بأن الحواس هى وسائل استشعار مجهزة لتتلمس ما يصل إليها أو يحيط بها، وبلغة الهندسة نسميها مستشعرات (Sensors)، وهى تنفعل – نسبيا – بنوعية المؤثر (أو الإشارات) المصممة لتحسسه، وتنفعل أيضا بالمؤثرات الأخرى انفعالات يصعب ترجمتها أو التعبير عنها بوضوح. فحين ترتفع درجة الحرارة تتأثر الأذن بذلك الارتفاع لكنها مخلوقة أساسا لتكون بداية سلسلة الإحساس بالأصوات، وليست لاستشعار شدة درجة الحرارة.

والانفعال بالمؤثرات هو أول مراحل الإحساس. ومعظم الأشياء تنفعل بما حولها ولكن بدرجات متفاوتة ومتباينة. وتنتقل الإشارات الملتقطة عبر ناقلات – أصبحت معروفة تشريحيا – حتى تصل ماديا للمخ ومنه (معنويا) إلى العقل ولا نعرف كيف يتم الوعى بها، أى كيف تترجم الإشارة المادية إلى معنى؟

ويتميز الإنسان بمقدرته العقلية على ترجمة العديد من المؤثـرات المحيطة به إلى معان ومعلومات شبه محددة. ويتفاوت الناس في حساسـية حواسـهم ودقـة النقـل وفـى ترجمـة وتوظيـف هـذه الإحساسات فى العقـل. ولا نسـتطيع أن نجـزم بسـلامة النقـل ولا دقة الترجمة ولا حسن التوظيف. والدليل علـى ذلـك أننـا نختلـف كثيرا فى تشخيص حالات محددة ومحدودة جدا.

الاختلاف والحس

الحس نقصـد بـه - هنـا - الإحسـاس بوجـود الشـىء. ومحـرك الحس لدى العاقل هو وجود تغير يمكن إدراكـه، أو شـيء يمكـن تمييزه. فلـو افترضنـا وجـود سـلك أوخيـط مستقيم طويـل جـدا ومتجانس تماما - من حيـث السمك واللون - يتحـرك بسـرعة أمـام أعيننـا فلـن نشـعر بحركـة السلك، ولـو جـرى منـه عـدة كيلومترات أمام أعيننا، وسيكون حكمنا (السريع) عليه أنه ساكن، وهـذا خـلاف الحقيقـة ومجـرد لمسـه يمكـن أن يؤذينـا بحركتـه السارقة. ولكن حين تمر أمام أعيننا نقطة مميزة (مختلفة عن ما قبلها أو ما بعدها) علـى السـلك، عندئـذ نعلـم أن السـلك يتحـرك، حركة نسبية.

ونفس الحال بالنسبة لأى متغير آخر، فنحـن لا نـرى الهـواء لأن جزيئاتـه أدق من أن نراهـا أو نشـعر بحركتهـا النسـبية بالنسـبة لبعضها البعض، أى أنه بدون وجود علامـة مميزة وواضحـة لا نشعر بتغير.

التبـاين هـو الـذى يولـد الاختـلاف، والاختـلاف هـو الـذى ينبـه الحـواس ويهيئهـا لـلإدراك، وبقـدر شـدة الاختـلاف فـى تصورنـا تكـون سـعة الأفـق. فالسـكون المطلـق يعنـى العدم، وهـو غـير موجود فى الكون المحيط بنا، حتى الميـت والحجـر يوجـد فيهمـا

نشـاط مسـتمر فـى محيـط الـذرات، لكنـه ألطـف مـن أن ندركـه بحواسنا.
من التباين والاختلافات تنشأ الملاحظات وتتبلور المعلومات التى يشحن العقل بها ويبدأ بعد ذلـك فـى توظيفهـا. وتلـك المتبلـورات المعلوماتيـة تتشـابك فـى كـل عقـل بنظـام مختلــف. ومـع كـثرة المعلومات يحتاج العقل إلـى مـا يسـمى بالتقسـيم والتصنيـف إلـى مجموعــات وتحديـد الفواصـــل المتوهمـــة بيـــن المجموعـــات المتشابكة، ونلجأ أيضا إلى مـا يسـمى بـالتحليل كوسـيلة مسـاعدة للفهم، وهو فهم خاص لكنه أفضل كثيرا من الجهل.
ولأن الشبكات التى تحمل معلومات العقل محدودة فنلجـأ للتجريـد والاختزال الشديد، فنختزل الكرة فى نقطة هى مركزها الهندسى، ونمثل القضيب بمحوره فقط، والانحنـاء البسيط نعتـبره مسـتويا وهكذا ....

مقومات التصور

أبـرز وسـائل تصورنـا يمكـن أن نسـتدل عليهـا مـن نـور الذكــر الحكيم، قبل علوم الطبيعة والهندسة والطب، التى لاتنكر أهميتهـا كوسائل مساعدة تتطور من خلال عقولنا، والصحيح الذى تتيسر لنا منها يمجد ربه ولا يتعارض أبد مع ماجاء فى الذكـر الحكيـم. وفى ذلك يقول عز وجل: ﴿إن السـمع والبصـر والفـؤاد كـل أولئك كان عنه مسئولا﴾ الآية ٣٦ – سـورة الإسـراء. ولفـظ الفـؤاد هنا يشير إلى العقل كما سبق أن بيننا فى كتاب العقل[٨].
تلك النعم الثلاث متكاملة، وهى لاماديـة وتشـكل أسـاس علاقاتنـا بـالوجود المـادى منـه واللامـادى. وفـى الحديـث الشـريف، الـذى يقرب لعقولنا بعضا مما فـى الجنـة، فقد ورد أن اللـه – سـبحانه وتعـالى – *قـد أعـد لعبـاده الصـالحين مـا لا عيـن رأت ولا أذن*

سمعت *ولا خطر على قلب بشر*" . ولفظ القلب في هذا الحديث يشير إلى العقل أيضا. ويستفاد من الآية الكريمة والحديث الشريف أن الرؤية البصرية والسمع والعقل، بما له من ذاكرة ومايحدث فيه من عمليات، تعد ركائز أساسية للتصور.
وباللغة والمصطلحات التي تعودنا عليها في زماننا هذا، فمقومات التصور الأساسية هي: الجهاز السمعي ،الجهاز البصري ، والعقل، كما أوضحنا في كتاب "العقل: تنظيمة وإدارته"[٨]؛ فالفاقد للسمع والبصر لا شك في تدني عقله إلى درجة البؤس، والمجنون(الذي لايعقل) لا فائدة تذكر من وراء ما يلتقطه سمعه أو يقع عليه بصره.
والسلامة العضوية للجهازين السمعي والبصري وللمخ، بدون إيمان صحيح لا تغني ولا تضمن سلامة التصور عن الوجود، ولا تؤدي بالضرورة إلى الفلاح. والدليل على ذلك قول ربنا عز وجل: ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾ الآية ٢٦ - سورة، الأحقاف. ففي هذه الحالة (الجحود بأيات الله) لن يصح التصور أبدا؛ لأن الحقائق والأمور المغيبة عنا، والتي تفوق طاقة إدراكنا، لا يستطيع العقل أن يصل إليها بذاته وفكره؛ لأنه لا يعرف مفرداتها، ولذلك فلا غنى عن التبليغ بشأنها وتقريب الصورة بمفردات معروفة وذات دلالة. ولذلك أرسل الرحمن الرحيم رسله - عليهم جميعا صلاة الله وسلامه - بالآيات؛ مبلغين ومبشرين ومنذرين ومصححين للتصورات وللمعتقدات. ومن يجحد بآيات الله فقد اختار ضلال تصوراته وهو لا يعلم، وبالتالي لا يوثق في سلامة فكره، ويجب الحذر منه.
إن أبرز محددات ملامح التصور البشري هي حب النفس؛ فمحور التصور لدى كل إنسان هو نفسه كما يتصورها هو، وهذا المحور هو القاسم المشترك لمعظم صور العقول، ما هي

اهتماماتى؟ لأنها هى التى تشغل عقلى. وأين موقعى فى الوجود؟ ذلك يجب أن يكون له أهمية خاصة!
وحب النفس فى حد ذاته لا غبار عليه، إلا حين يتأسس على الجهل بحقيقة النفس والمعلومات المغلوطة بشأنها، وبالتالى التصورات المختلة.
وفيما يلى نتعرض بإيجاز لأبرز مقومات التصور العام، وهى:
- الجهاز السمعى.
- الجهاز البصرى.
- العقل، وقد سبق أن تعرضنا له مرارا.

الجهاز السمعى

لقد زود الخلاق العليم - جل شأنه - الإنسان بجهاز سمعى بلا بوابات عضوية؛ ليلتقط ما يتيسر له من الإشارات الصوتية المميزة، فى مدى تردد محدود جدا، وعبر قنواته الخاصة يغذى بها العقل لتشغيلها و/أو تخزينها لحين التوظيف. وهذه الإشارات الصوتية هى فى الأساس معلومات (أو مفردات) غفل متواضعة المستوى المعنوى، فهى - فى البداية - تصفع الأعضاء المادية بلا معنى، لكن العقل - بحالته - هو الذى يترجمها أو يفك شفرتها ويستخلص معناها ثم يوظف هذا المعنى بالطريقة التى يراها مناسبة. أما الترددات الخارجة عن مدى السمع فلا تصل للعقل وبالتالى فهى كالمعدومة سواء بسواء.
فى البشر السمع هو أبرز وأيسر وسائل استقبال المعلومات والتبليغ، حتى بعد انتشار وتعلم القراءة نجد أثر التلقى السمعى أشد من أثر القراءة الذاتية. ولكن فى أغلب العجماوات نجد الصورة مختلفة فالبصر يتقدم على السمع من حيث الأهمية والتأثير.

وفى الذكر الحكيم نجد السمع مقدم على البصر - بالنسبة للإنسان - فى أغلب الآيات التى تشير إلى وجوب التعقل والتفكر وحسن التصور. هذا ونلحظ أن نسبة الفقد فى المضمون المسموع تقل كثيرا عن نسبة الفقد فى المضمون المرئى، لذلك فالسمع أجدى من البصر فى استقبال الرسالة المحددة.

وإن كان من الممكن أن نتخيل كيفية تكون الصورة البصرية فى فهمنا، فإنه من الصعب تصور كيفية فهمنا للصورة الصوتية. وإن كان من يقرأ ويكتب لديه تفسير للدلالة الصوتية للحروف إلاأنه يتعذر فهم تصور من لا يقرأ ولا يكتب لمعنى الأصوات وكيف يختزن بصماتها أو تركيباتها فى ذاكرته.

وتصورنا الكمى (لشدة الصوت) أوضح من تصورنا النوعى له، فالكم يمكن قياسه بأجهزة تحسم الخلاف فى درجة حساسية الأذن، لكن النوعية تتوه فى الترجمات الخاصة لدى الأذواق (العقول).

وبعد ذلك تظل ملايين الأصوات التى تصفعنا ليل نهار ولانعرفها ولاندرى عنها شيئا، فما مدى ثقتنا فى تصوراتنا!

الجهاز البصرى

البصر هو جهازنا الذى يستقبل - من بين الموجات الضوئية - الموجات ذات الترددات التى تناسبه، وهى المحصورة بين الأشعة الحمراء والأشعة البنفسجية. وهذا الاستقبال الأولى هو عملية شبه آلية ، أى متدنية المستوى المعنوى، ولسنا متأكدين من نوعية هذا التمثيل البصرى (الإشاراتى) للأشياء أو للمعلومات فى العين. والجهاز البصرى يحول هذه الإشارات إلى إشارات مميزة يتعرف عليها العقل بقدراته ويهذبا ويضبطها - لا شعوريا - بطريقته ومن وجهة نظره هو. وبعد ذلك تأخذ هذه الإشارات المكان الذى يناسبها فى خريطة التصور ، وحين

تكون الإشارات غريبة ولا يوجد لها مكان مناسب فيحاول العقل التصرف فيها بما يريحه هو أو يجرى تعديلات فى خريطة التصور لتهيئة مكان للصورة الجديدة.

والبصر – كمغذى للعقل – هو فى الغالب لا يلتقط كل تفاصيل الصورة إنما يركز على "الكنتوريات" وبعض التفاصيل اللازمة لإقناع العقل بالمعرفة الكافية بخصوص الصورة.

وأغلب ما نتعامل معه هو فى الحقيقة اضطرابات (حركات) موجية متحيزة – أى تشغل حيزا – تشغل أبصارنا وتساهم فى تشكيل ما يتشكل في تصورنا. ووسائل وأساليب القياس المبتكرة تساعدنا في صياغة التصور وتطويره. وحين نفتقد وسيلة قياس (أو حساب) شيء ما يضطرب تصورنا أو يعجز. فمن يولد أعمى يتعذر عليه تصور الألوان؛ لأنه يفتقد المرجعية، ومهما شرحنا له فلن نزيد تصوره إلا اضطرابا؛ لأننا فى الشرح نستخدم مصطلحات يعجز الضرير عن تصورها؛ بسبب عدم وجود مفردات أولية تمكنه من إدراك معنى مانقول.

ووجود وحدات القياس المعيارية – المتفق على صورتها – هو الذى يقرب التفاهم بشأن فكرة القياس، فقد يكون فى عينى ميلا إلى الميكروسكوبية وفى عين الآخر ميلا للتلسكوبية، ونتعامل فى نفس الأشياء دون أن نشعر بالفارق فى التصور لدى كل منا رغم وجوده المؤكد، فلدى كل منا تصور مرجعى خاص بالنسبة لوحدة القياس.

وكمثال آخر، نقول أنه لا يوجد ما يؤكد اتفاق تصورى وتصورك للون الأخضر – مثلا – وكل ما نستطيع الاتفاق عليه هو أن اللون الأخضر هو لون ورق شجرة كذا، هذه علامة ليس إلا، ويصبح هذا الأمر متعارف عليه بيننا، وليتصور كل منا ما يشاء، والحقيقة شيء آخر، بمعنى أنه لو افترضنا شخصا قد ولد بيننا، وركبنا على عينيه عدسات شفافة لونها لبنى – مثلا – وظل هذا الشخص ينمو ويتعرف على الألوان كما يسميها الناس،

فإنه سوف يقول (باقتناع) عن الطماطم أنها حمراء، رغم أننا نعلم يقينا أن لونها عنده شيئا آخر يختلف عن الأحمر الذى نعرفه، ولو رفعنا العدسات من عينيه سيعبر عن دهشته لتغير ألوان الأشياء فجأة.
والعلم المعروف - حتى الآن - يقول إن الذى يشكل الألوان هو اختلاف التردد (الاضطراب) الموجى، الذى أراه بعين تلسكوبية وتراه أنت بعين مجهرية، فهل يوجد ما يؤكد أن اللون الأحمر فى تصورى هو نفسه فى تصورك!
إن عقل الرائى يساهم فى تشكيل صورة المنظر الذى يراه لذلك تتباين صور نفس المنظر بتباين حواس وعقول الناظرين.
ولنتأمل مسألة التصوير "الفوتوجرافى" ، فحين ينظر الشخص لصورته التى التقطتها الكاميرا (المحايدة)، كثيرا ما يقول إن الكاميرا أخرجت صورة أقل جمالا من الحقيقة؛ لأن الصورة التى يراها فى المرآة أجمل من صورة الكاميرا، هذه تصوراتنا لأنفسنا! والله - سبحانه وتعالى - هو الأعلم بصورتنا فى عيون الآخرين، ومع ذلك فمن يتأمل بدقة وباختبارات غير مباشرة سيدهش كثيرا حين يعرف بعضا من تصورات الناس له.
وعلى أساس التصور المختلف - عندك وعندى - فقد يشعر أحدنا أن اللون الفلانى يبهج بينما يرى الآخر غير ذلك، دون أن نقصد الاختلاف، لأننا حبايب، لكن التصور له رموزه ومعانيه ومحاوره وتشكيلاته الخافية.
والصور التى فى عقولنا ليست مجردة ولكنها بالغة التشابك وعديدة الألوان المعنوية وديناميكية؛ فصورة الشىء تكون مطعمة بمعلوماتنا عنه، وصورة فلان تصبغ فى اللاشعور بمعانى معلوماتنا السابقة عنه، أو عن ما يشبهه أو يشترك معه فى بعض الخصائص التى نعرفها، وإن لم يكن لدينا معلومات عنه تظل الصورة غامضة وسط الظلال. ورضى الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إذ يقول: "أهاب الرجل حتى يتكلم" ،

أى نحتفظ له بصورة ظاهرية جيدة إلى أن يثبت غيرها بكلامه هو.
وبما أن، منشأ التصور ينشأ عن الإحساس بوجود الاختلافات، والاختلافات لا تتوقف ولا حصر لها، إذن فطبيعة التصور ديناميكية متغيرة، لذلك تتغير نظرتنا للأشياء وللأمور باستمرار، ويتطور تصورنا لحقائق الوجود، ولسنن الله رغم أنها لا تتبدل، لكن تصورنا هو الذى يتبدل، وحين نشعر بتعارض أو اختلاف (تغير) غير مبرر تأخذنا الحيرة ونظل نبحث عن تبرير أو تعليل.
وبعد أن تأكدنا من تباين التصورات وقصورها لدى كل منا، فيمكن أن نرجع إليه كل ما نعانيه من خلافات تصل لدرجة الصدام والقتال.
ومما يؤكد عجز تصوراتنا عن استيعاب حقائق الأشياء التي تشغلنا، ما جاء فى محكم التنزيل: ﴿... وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ...﴾ الآية ٢١٦ – سورة البقرة. من منا لم يتأكد عمليا من عظمة صدق هذه الآية؟
فهل نحتاج إلى برهان بعد ذلك؟!

اللغة والتصور

اللغة عموما هى وسيلة للتعبير والتفاهم بين الخلائق بعضها مع بعض من ناحية، وأيضا بين الخلائق وربها من الناحية الأعظم.
واللغة بالإضافة إلى كونها وسيلة للتعبير والتفاهم، فهى من أبرز دعائم التصور العقلى، والتسجيل والتعامل بمختلف أنواعه.
واللغة المجردة هى مجموعات من الرموز المتفق عليها – اصطلاحا – بغرض الدلالة على المعنى المقصود بها.

وفى التعلم نجد للمصطلح أثر بالغ الحساسية فى التعبير والتصور. وفهم الجملة التعبيرية أو صياغتها يتوقف أساسا على نوعية فهم المصطلح؛ فالمصطلح (أو الجملة) يلقى فى الوجدان ما يلقى، وقد يغيب عن وعينا نص الجملة لكن ماألقته فى وجداننا يدوم أطول، ودقة المصطلح تدل على عمق الإدراك لدى من صاغه.

وعموما كلما كثرت مفردات اللغة كلما ازدادت ثراء، ومكنت من دقة الوصف وحسن التعبير. ومن المعروف فى عصرنا الحاضر أن أدنى اللغات (معنويا) هى لغة الآلة التى تتكون أساسا من حرفين - يبرزان معنى الاختلاف أو المقابلة - هما 0, 1 ؛ لأنه بدون اختلاف فلا معنى، ويصبح الأمر مسخا وبالتالى فلا حاجة للتعبير أو التصور، وكلما تدرج الاختلاف كلما توفرت الفرصة لإبراز معانى جديدة ودقيقة. وفوق لغة الآلة توجد لغات البرمجة المعروفة فى مجال الكمبيوتر.

لغة الآلة ولغات البرمجة هى لغات مادية أى للتعامل مع الجمادات التى يستحيل عليها أن تدرك المعنى بذاتها، وإن أمكن تغذيتها ماديا بمعان (محددة) جامدة - من ذهن المبرمج.

أما لغات العجماوات فلا نعرف عنها إلا أقل القليل، وهى ليست محورية - هنا - فى دراستنا للعقل والتصور البشرى. وبالنسبة للغات البشرية المعروفة فهى لغات نعتبرها راقية المستوى (المعنوى)، ويبدو من تواريخ وآثار أغلبها أنها منتجات عقلية(بشرية)، هذا باستثناء اللغات التى شرفت فتوجت بحمل رسالات الهدى والنور بين السماء والأرض، وخصوصا تلك التى تتشرف بمكانتها فى اللوح المحفوظ، والله - جل وعلا - اعلى واعلم.

وقد نقول ان اللغة - بمفرداتها - هى شفرات ترقت بمرور الوقت وتنوع الاستخدام، واكتسبت من المعانى والدلائل ما لم يكن موجودا يوم صيغت لأول مرة. وقد اشتقت المصطلحات

وصيغت في ظروف لم نشهد معظمها ولكن يمكن أن نستدل على بعضها، بلا يقين. ومن الحروف الأبجدية المحدودة صيغت المصطلحات والكتابات اللامحدودة.
والمصطلحات تعتبر لبنات اللغة، ولذلك فجودة المصطلح، وملائمته للتعبير، تعتبر جوهرية في الأداء اللغوى وفي التصور. وما ذكرناه عن التباين في تصور الأبعاد والألوان يوجد ما يشبهه في تصور المصطلحات والجمل، وفي كل ما نتعلم أو ندرك، والحقيقة شيء آخر. والكثير من الصفات المعنوية في عقولنا تبنى على التصورات التي هي في الأساس معلومات.
الإدراك أثر للتصور وكل تصور بشرى مدموغ بالنقص؛ بسبب محدودية العلم. ومن المسلم به أننا لا ندرك من الشيء إلا ما يتيسر لنا، من خلال نماذجه وهي بعض صور الحقيقة، والأمثلة على ذلك عديدة، ويتم ذلك بصورة رمزية، وقد فصلنا ذلك في كتاب العقل. وما ندركه يطور تصوراتنا للأمور، ونعبر عن هذه التصورات بأكثر من كيفية، في محاولة للتعبير عن مدى فهمنا للأشياء. وأبسط التعبيرات يتمثل في الرمز أو الإشارة، ويتدرج إلى التعبيرات اللغوية بمستوياتها، ثم النموذج والواقع، ووراء ذلك توجد الحقيقة التي تتضمن وتفسر كل شيء.

ومن الخطورة أن يكون شدة (أو حجم) تعاملنا مع الشيء أبعد من مدى فهمنا له، وأسوا الحالات تلك تسمى التعامل بجهل، والنتيجة تكون – في الغالب – غير محمودة العاقبة. وعلى سبيل المثال يقول خير البرية في الحديث الشريف الذى رواه الإمام أحمد في المسند عن أنس – رضى الله عنه: *"إن هذا الدين متين فاوغلوا فيه برفق"*. فالدين الصحيح يقوم على الحقائق الخالصة أما مافي معظم العقول والأفهام فهو نماذج واهية، ومن هنا يجب الحذر في التعامل مع الأشياء الجليلة والعظيمة.

الحقيقة والواقع والنموذج

مصطلح الحقيقة المستخدم في لغتنا هو في الغالب مجازى، والحقيقة المطلقة تنتسب للملك الحق المبين – سبحانه وتعالى – الذى يستحيل تصوره، وما سواه فهو طارئ وموقوت وحقيقته مجازية وليست أصيلة، والتصورات المختلفة واردة بشأنها. وما نتصوره بعقولنا عن الوجود – بأشكال مختلفة – ليس إلا صورا محدودة الدقة لحقائق مرحلية أو نسبية، وهذا لا يتعارض مع القول بوجود حقائق مرحلية راسخة يقوم عليها الوجود، أويتشكل بها الواقع إلى حين، بقدرة القوى العزيز – سبحانه وتعالى. ويتفرع من الحقائق الكبرى حقائق أصغر فأصغر. وكلما صغرت الحقائق كلما مالت للتقلب والتغيرات؛ لتؤدى وظائفها المتنوعة في الوجود وفق ما نسميه بالقوانين.

وهذا القول بتغير الحقائق (الصغرى) لا علاقة له بقول السوفسطانية الذين أشار إليهم، وحذر منهم، إبن الجوزى فى كتاب "تلبيس إبليس"[١]. فالحقائق المحلية موجودة كبيرها وصغيرها، ولكن سرعة تقلب صورها فى العقول هو الذى يسبب اللبس لدى البعض.

النموذج ينتج أو يتولد من تصورات العقل البشرى للشىء، فالنموذج هو صورة مبسطة جدا أو مجردة، أو تمثيل نسبى – متفاوت الدقة – للواقع، كما يتصوره العقل. والواقع الذى نلمسه ونعايشه هو صورة ظاهرية محدودة لطرح الحقائق المرحلية. وهذا التسلسل هو تدرج فى مستوى العلم، كما ذكرنا من قبل، فكلما زاد العلم ترقى النموذج فى تصوراتنا واقترب خطوة من الواقع وتعمق فهمنا له. والفهم الجيد للواقع – وبالتالى القرب من الحقائق – هو دوما ضالة العقلاء ووسيلتهم فى التعامل الراقى مع الاشياء.

ونظرا لشدة تشابك الواقع فنضطر لوضع العديد من الفروض؛ للتغاضى عن بعض تفاصيل هذه التشابكات التى تبدو معقدة، ولذلك فالنموذج حتما يختلف عن الواقع وإلا كان واقعا، وليس نموذجا، وأبرز مظاهر الاختلاف أن النموذج أقرب للإستاتيكية بينما الواقع ديناميكى بطبيعته. والنماذج عديدة منها، الرياضى، والبيانى و"الكمبيوترى" وغيرها من النماذج.

وتشغيل النموذج نعتبره محاكاة مقبولة لسلوك الواقع ويساعد فى فهمنا له وبالتالى تطوير النموذج وضبط التعامل مع الواقع والتأثير عليه. والنموذج هو تعبير عن صورة ذهنية قابلة للتطور إلى مالانهاية، وبقدر ما يترقى النموذج بقدر ما يقترب من الواقع ويترقى العقل ويستنير. ومهما ترقى النموذج فمن المستحيل أن يمثل الحقيقة تمثيلا كاملا وإلا صار حقيقة حية وحاكمة، ولايملك تحقيق ذلك إلا العليم القدير – جل وعلا.

الواقع هو ما نلمسه ونعيشه أو نتعايش معه، ويؤثر فينا ونؤثر فيه، وهو الطرح المتواصل لشجرة الحقائق ولذلك فهو دائم التغير والتطور، وكلما استدق التطور كلما صعب علينا ملاحظته لكنه موجود ومؤثر بدرجته.

ومقابل الحقيقة هو الوهم والخرافة، والحقيقة تكون حية وهى من صنع أحكم الحاكمين تبارك وتعالى، ولذلك فهى لا تكون ضد الحق أبدا، لكنها تكون – على طول الخط – ضد الكاذبين والمجرمين والكافرين والمضللين ومن على شاكلتهم. والحقيقة (الأصلية) لا تظهر للعين ولابد من البحث عنها بالعقل والاستنتاج، قبل الأجهزة والمعدات.

وفى لغة الناس يحدث الخلط بين الواقع والحقيقة. وهنا قد نستخدم اللفظين بالتبادل أحيانا لتقريب الفهم للناس بلغتهم. والواقع الذى نعيشه ونتصوره هو – فى الغالب – خليط من نتاج الحقائق والأوهام، أو من الحق والباطل؛ بسبب قلة العلم واختلاط الأفهام. ويوجد بين الناس من يعيش الوهم فى عقله، ومنهم من

يعتبر حقيقة البحث خرافة، ومنهم من يعتبر السلطة أو المال أقوى معبود، وفى سبيلهما يرتكب العديد من الجرائم!
والهيكل الأساسى للواقع هو الحقائق الخافية التى يصعب إدراكها وبدونها لا يقوم شىء، ومعظم الحقائق تخفى أنوارها على الجهال، أما ديكور الواقع فهو القشور والزينات الظاهرة والأوهام. ولا يقدر على كشف الأوهام إلا أصحاب العزائم العقلية وأولوا الأبصار. ومن يدقق يجد أن أغلب ما نتعلق به حظه من الحقيقة قليل.
وبغرض التوضيح، نسوق بعض الأمثلة البسيطة: فأكثرية الناس تخضع لسلطان المال وتضعف أمامه رغم تفاهة حقيقته، وتخشى بطش السلطة وتنافقها رغم زيفها المنتفخ. والأمثلة تفوق الحصر، وهذا واقع أليم تشهده كل العصور. ولكن الحقيقة أن المال وريقات زائلة بها يطلب حطام الدنيا، والسلطة قوة مصطنعة موقوتة وما أسرع زوالها مخلفة الحسرة والندامة. ولكن العقول السطحية ترى سلطتى المال والمنصب كأنها حقائق راسخة يرتكز عليها الواقع!!
وأصدق الفكر هو الذى يطرح القشور الزائفة ويتعمق حتى يلمس أنوار الحقائق عندئذ يشعر بالطمأنينة لصحة التصور ووضوح الرؤية العقلية.

التصور والظن

الظن من المصطلحات العجيبة التى نحتاج إلى مراجعة فهمها. ففى رأى بعض المتخصصين فى اللغة العربية أن لفظ الظن ورد فى محكم التنزيل بتباينات شديدة لدرجة أنها تغطى المعنى وعكسه وما بينهما، أى ورد بمعنى يفيد الشك وبمعنى يدل على شبه اليقين وما بينهما من الدرجات. ويمكن أن نفهم من ذلك أن معنى هذا اللفظ يتوقف على نوعية التصور، ولذلك نقول أن

الظن هو حالة تصور ذهنية لمنظومة معلوماتية معينة، ومن ثم تختلف الصورة من شخص لآخر حول نفس القضية، ولدى الشخص نفسه بتغير منظومة معلوماته وبتطورات الواقع من حوله.

ولذلك نحسب الظن فرع من التصور، أو هو حالة تصور للواقع أو للغائب. وتصورنا (أو ظننا) المختلف - قطعا - عن الحقيقة لا يمكن أن يكون بديلا للحقيقة أو حتى للواقع الذى نعيشه، ولا يغنينا عنهما، فلا تصورنا للطعام يشبعنا، ولا تصورنا لخزان الماء يروينا. وسبحان القائل: ﴿... إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا﴾ الآية ٢٨ - سورة النجم. وفى نفس الوقت نجد أن حسن التصور يمكننا من حسن التعامل مع (أو تجاه) الشىء الحاضر أو الغائب.

وغياب الحقائق عن تصوراتنا لا يعفينا من تأثيراتها علينا، فعدم انتباهنا لحفرة الطريق لا يعفينا من الوقوع فيها، وعدم رؤيتنا للشجرة لا يمنع اصطدامنا بها، فتأثير الواقع مؤكد ولا شك فيه. وحين نقصر فى تقصى حقيقة الشىء ومطاردة الأكاذيب قد تتكون لدينا صورة زائفة أو شديدة البعد عن الواقع، وقد يوقعنا ذلك التقصير فى محيط الإثم ﴿... إن بعض الظن إثم﴾ الآية ١٢ - سورة الحجرات. وأيضا قيل أن الفراسة ظن وافق الصواب، أى بنى على تصور صائب.

والظن - كصورة ذهنية - يخطىء ويصيب، ويؤثر بشدة فى سلوكنا وفى تعاملنا مع الغير أو مع الأشياء، وسوء الظن (التصور) فيه قدر كبير من التجنى على الحقيقة، وفيه ظلم للغير ولأنفسنا. ويجب علينا دوما أن نسأل العليم الخبير أن يلهمنا صواب التصور.

التصور والشك

فى ضوء ماسبق يمكن أن نواصل تعميق فهمنا لبعض المصطلحات الصعبة والغامضة التى نتعامل معها ومنها مصطلح الشك. فالشك هو أرجوحة العقول بين الصور المشوهة والمهزوزة، وهو حركة ترددية متتابعة فى مساحة ما تقع بين الحقيقة والوهم. ولا نحسب أن عقلا يخلو من نوع ما من الشك، بخصوص مسألة أو أكثر. والشك حالة عقلية غير مريحة، تنتج عن عدم الثقة فى التصورات أو المتاح من المعلومات.

وقبل أن يستقر العقل على حقيقة واقع ما فإنه يتردد حولها فترة قد تطول أو تقصر، ولا يمكن أن يستقر التصور على الوهم، فكلما اقترب العقل من الوهم زادت سرعة تردده، وبرز القلق ومضاعفاته، وكلما اقترب العقل من الحقيقة كلما هدأ تردده وسكن مستظلا بالطمأنينة والراحة.

وحالة التردد هذه يشير إليها الذكر الحكيم بقوله: ﴿ .. وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون﴾ الآية ٤٥ - سورة التوبة.

وحين تزداد الثقة فى التصورات يتلاشى الشك بخصوص مسألة ما، ويقترب العقل من حالة التأكد (اليقين). فحين تكثر الحقائق وتغطى كل جوانب الصورة فلا توجد فرصة للوهم وبالتالى ينتفى الشك. وفى ذلك يقول ربنا عز وجل فى مطلع الفرقان: ﴿ الـم ذلك الكتاب لا ريب فيه ...﴾. والمعنى أن ذلك الكتاب العزيز هو الحق الخالص، وفيه تكمن الحقائق الراسخات والآيات التى لا يعقلها إلا العالمون. والعقل الفطرى والمحايد يمكنه أن يستشعر نور تلك الحقائق بلا عناء.

التصور والغيبة

أفضل تعريف للغيبة هى: "*ذكرك أخيك بما يكره*"، كما جاء فى الحديث الشريف. والغيبة كشىء معنوى لا تتفاعل بذاتها مع الواقع المادى مباشرة، لكنها بطريق غير مباشر تظلم وتشوة صورة الغير (الغائب) فى عقول السامعين، دون أن يشعر المظلوم بذلك. وينعكس هذا - بالتأكيد - على نوعية تعاملاتنا - بعد ذلك - مع من قيلت فى حقه الغيبة (فلان)؛ لأننا نتعامل مع صورة فلان التى فى عقولنا قبل أن نتعامل مع فلان ذاته (أو حقيقته)؛ لأن حقيقته لا يعلمها إلا العليم الخبير - جل وعلا.

وهذا الأثر السىء للغيبة أساسه تصورى بحت، فحين نتصور فلانا غشاشا، بسبب ما قيل فى حقه، فلن نثق فيه وسنحاول الابتعاد عنه ونحذر التعامل معه، وتضطرب علاقتنا به، وقد تكون حقيقته غير ذلك أو أنها تطورت فأصبحت أفضل دون أن ندرى.

وسبحان العليم الخبير الذى (شبه) صور لنا حال من كانت الغيبة فى حقه بالميت، وصور حال المشارك فى الغيبة وكأنه يأكل لحم أخيه ميتا؛ لأن ذلك ينتقص من كيانه المعنوى (صورته) فى عقول السامعين، وهو لا يملك فرصة الدفاع عن صورته.

القول والقائل

القول - على المستوى البشرى - هو الطرح اللغوى للنماذج العقلية، وفى نفس الوقت هو أهم أغذية العقول المستقبلة لذلك القول، وإن صلح الغذاء انتفع المتغذى عليه والعكس بالعكس. والقول هو أيضا تعبير لغوى عن شىء أو جملة أشياء، والقيمة الحقيقية للقول تتوقف، إلى حد كبير، على مدى عظمة وعلم

وبلاغة وصدق القائل (أو المصدر)؛ لأن القول يستخلص من مدى العلم بالشيء، وكلما كان علم القائل غزيرا - حول الموضوع - كلما توفرت الفرصة لطرح أعز الأقوال وأنفعها.
وخطورة القول أن عامة الناس يتأثرون كثيرا بشخصية القائل قبل تأثرهم بجودة ما يقول، فكلام الحبيب مقبول وممتع ولو كان - في حقيقته - تافها، وكلام العدو مرفوض أو ثقيل ولو كان قيما حقا. والهالات التي تصنع حول بعض المشاهير تجعل أقوالهم في نظر الناس - عموما - مستحسنة أو هامة أو مأثورة. وحين ينكشف زيف بعض الشخصيات تسقط معها أقوالها ودعاواها، والأمثلة على ذلك عديدة.
وبسبب قصر النظر وضعف البصيرة تتأثر الناس بأقوال الشخصية الحاضرة أكثر من تأثرها بأقوال الشخصية الغير حاضرة، حتى ولو كانت الثانية أعظم من الأولى؛ فالناس يتعاملون مع المتجسد أماهم والذي يكبر نموذجه في صدورهم.
وأكثر الناس يخافون من الحاكم أكثر من خوفهم من خالق الحاكم؛ لأن الأول متجسد أمام حواسهم وركائز سلطانه ترهبهم.
وهم يفضلون العاجلة - لسرعة حضورها - على الآخرة لغيابها عن مخيلتهم، هذا برغم علم أكثرهم بأن الآخرة أصدق وأخير كثيرا من الأولى.
وليست كل الأقوال تعبر تعبيرا صائبا عن الحقيقة، فما أكثر الأقوال التي تجافي الحقيقة وينخدع بها الناس وهم لا يشعرون. وكم من الأقوال التي طغت فيها البلاغة على حمى الحقيقة، وما أكثر الأقوال التي تجافي الحقيقة ويقبلها الناس وقد يعملون بها. ومن الأقوال التي تجافي الحقيقة أقوال بعض الشعراء، وقد وصفهم العليم الخبير - عز وجل - بأنهم ﴿يقولون مالا يفعلون﴾.
وفي حديث حارثة المشهور عن خير البرية - صلى الله عليه وسلم - يقول لحارثة" *انظر ماتقول، فإن لكل قول حقيقة*". نعم

لكل قول حقيقة تحدد مدى صدقه، فحين يتوافق القول مع الحقيقة عندئذ يتجلى الصدق، وعندما يجافى القول الحقيقة ينشأ الكذب.
والقول الصادق هو نور الحقيقة المحمل ببعض طاقتها الفاعلة والنابع من قواعدها الثابتة. ويمكن للمكذب أن يردد بلسانه بعض الأقوال الصادقة وهى تلعنه؛ لأنه مكذب بصدقها. أما حينما ينطق لسان المصدق بالقول الصادق فعندئذ تتولد الطاقات العجيبة وتطرب لذلك الفطر النقية والقلوب السليمة.
وفى حدود قدرتنا على التعبير نقول (بخشوع): أصدق الكلام كلام رب العالمين - عز وجل، ثم يلى ذلك كلام المصطفين المبلغين عن أصدق القائلين، ثم أقوال الحكماء فالعلماء فالمتعلمين.
والأقوال الصادقة قد تبلغ بقائلها (المصدق بها) مالم تبلغه الأفعال، وفى ذلك يقول الحديث الشريف: *"الحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأن ما بين السماء والأرض"*.
والقول يكون أنفع مايكون حين يطابق الحقيقة أو يوافقها، وتتردى قيمة الأقوال حين تخالف أو تتضارب مع الفعل. وأزمة المنافق أنه يقول عكس مافى قناعاته وتصوراته المشوهة. لذلك فعين المنافق لا تقر أبدا، ويظل يعانى من تناقضات عقلية مادام مستمرا فى النفاق.

ختام

خلاصة القول أن ترقية الحياة فى هذه الدنيا لا يمكن أن يتم بدون التعاون على ترقية التصورات البشرية. والتعاون - بجميع صوره وأشكاله - رهين بتقارب التصورات، وأنجح أسلوب

لتحقيق تقارب التصورات يكون عن طريقه توجيهها نحو الواحد الأحد - جل وعلا.

أحمدك يامن تفضلت على، وعلى والدى، بنعم لا تحصى وأعنتنى على إخراج هذا الكتاب، وأحمدك على ملايين النعم التىغفلت عن شكرها فى حينها، راجيا عفوك ورضاك، يا ذا الجلال والإكرام يا حى يا قيوم، يا من تملك قلبى وتعلم ما فى نفسى.
اللهم إنى أطمع فى المزيد من إحسانك وأسألك أن تجعل هذا العمل خالصا لوجهك الكريم، ولا يخفى على علمك أنى ما ذكرت اسما من أسمائك إلا مصحوبا بالتسبيح أوالتحميد أو التعظيم أو الإجلال لعظيم سلطانك، ولا يعز على كرمك أن تجعل نور حروف هذه الأسماء والتسابيح واصلا إلى قبرى.
هذا ويخفق قلبى برجاء أن تتوفنى مسلما شاهدا بوحدانيتك، على ملة نبيك محمد، عليه وعلى جميع رسلك أفضل الصلاة وأزكى التسليمات.

هذا، وكل نفس بما كسبت رهينة. وسبحان الله العظيم القائل: ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ، وَمَا تَشَآءُونَ إلا أَن يَشَآءَ الله رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِ الْعَالَمِينَ﴾.

المراجع

أ. الذكر الحكيم

ب. كتب الأحاديث النبوية الصحيحة.

ج. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

١. إبن الجوزى، تلبيس إبليس، نشر مكتبة الأندلس، الجيزة ١٩٨٦.

٢. دانبيل كليفس و ليروى هود ، الشفرة الوراثية للإنسان: القضايا العلمية والاجتماعية لمشروع الجينوم ، ترجمة د.أحمد مستجير، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب – الكويت ١٩٩٧.

٣. سيد قطب، مقومات التصور الإسلامى، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٣.

٤. سيد رمضان هدارة، الكون ذرة وحركة، دار القلم، ١٩٦٤.

٥. عبد الباسط الجمل، الهندسة الوراثية ومصير الإنسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، ١٩٩٦.

٦. عبد الرحمن الطريرى، العقل العربى وإعادة التشكيل، نشر أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٣.

٧. عبد الرحمن محمد العيسوى، تنمية الذكاء الإنسانى، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، ١٩٩٧.

٨. هانى عبد الرحمن مكروم ، العقل:تنظيمه وإدارته ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٩٧.

9. Boden, M.A., Computer Models of Mind, Cambridge University Press, 1989.

الفهرس

تم بحمد الله

رقم الإيـــداع : ١٧٢٩٣ / ٩٨
الترقيم الدولي : I . S . B . N
977- 19 - 7764 -4